
قطاع الثقافة

مكتبة الشعراوى الإسلامية

من فيض الرحمن



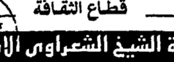
فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

مكتبة الشيخ الشعراوى الإسلامية



من فيض الرحمن

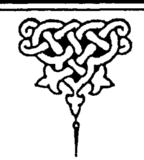
الجزء الثانى

فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن

حق التوبة وحق القبول



التوبة إلى الله هى الطريق الصحيح نحو المصير المأمول عنده، والتوبة عنوان القبول بالطاعة، والباب مفتوح لك تائب، فإن ظن العبد أن الباب مغلق، فإن المجتمع سيمتلىء بالانحراف والطغيان والجبروت ، فالتوجّه من رحمة الله، والقبول من فضله .

خلق الله آدم ليكون خليفة فى الأرض، وأعدّه الله بمنهج تجريبى فى «جنة تدريب» ضمن له فيها كل مقومات الحياة؛ ليتفرغ آدم لاستقبال المنهج تجربة وتدريباً .. حتى لا يباشر مهمته فى الأرض بمنهج نظري .

وقلنا : إن آدم عليه السلام تَمثَّل فيه عنصران :

*** عنصر الآدمية التى يتمثل بها جميع الخلق .**

*** عنصر الرسالية التى يتمثل بها الرسل .**

فهو من ناحية العهد الأول يمثل الآدمية التى قد تغفل، وقد تنسي، وقد تعصي .

ولكن الله لرحمته بذلك الخليفة لم يجعل مجرد الغفلة ولا مجرد النسيان ولا مجرد المعصية طرداً للخليفة عن مجال الرحمة؛ لذلك شرع الله للإنسان التوبة، وفى تشريع التوبة وقبولها من قابل التوب وغافر الذنب صيانة لحركة الهداية فى الأرض؛ لأن التوبة لو لم تشرع لكان مجرد وقوع معصية من إنسان ذريعة له أن يستشرى [1] فى الأرض

(١) الاستشراء فى المعاصي : التمادى فيها والاجتراء عليها .

بالمعاصى .

وحينئذ يفسد الكون بمجرد غفلة إنسان واحد؛ لأنه إذا كان قد تم طرده من الرحمة بمجرد معصية واحدة . . فلا أمل له أن يرجع . . ولماذا يرجع إلى منهج يحدد حرية شهواته بالحياة ما دامت المعصية الواحدة كافية لطرد الإنسان العاصى من رحمة الله .

وإذا تصورنا أن واحداً عصى ربه ثم يقع فى اليأس من قبول الله لتوبته . . فماذا يكون موقف هذا الإنسان من الكون؟

إنه سيعربد فى الكون انحلالاً وانحرافاً وطغياناً وجبروتاً .

وحينئذ يغرى غيره بالقدوة السيئة فى أن يكون مثله ، وحينئذ يمتلىء العالم كله شراً ، وتعج الحياة صداماً .

إذن : فمشروعية التوبة من الحق سبحانه وتعالى هى فتح مجال لرجوع الإنسان الذى انحرف .

والتوبة تعطى الحياة نفسها الخير من الإنسان الذى يصلح من نفسه الضالة .

إن الحق سبحانه وتعالى حين شرع التوبة وفتح باباً لها . . إنما يريد أن يجعل للإنسان العذر فى الغفلة أو النسيان أو الضعف الذى قد يصيب النفس الإنسانية فتعصي ، ولكن ذلك لا يغنى أن يتمادى الإنسان فى المعصية ؛ ولذلك شرع الله التوبة :

ويبين الله أنه أفرح بعبده العاصى - عندما يتوب - من الراعي الذى ضاع منه بعيره فى صحراء شاسعة ثم وجده فجأة[1]. والبعير كما نعرف بالنسبة للعربى القديم هو كل عُدّته، وعليه يحمل متاعه ورحاله. فإذا شرد البعير من العربي.. انقطع أمل العربى القديم من كل شيء فى الحياة.. فإذا ما رجع إليه بعيره فإنه بلا شك يفرح، وكذلك يفرح الله بعبده الضال إذا ما تاب، وفى ذلك كله صيانة وسلامة لحركة الحياة.

وحركة الحياة يحدد الله المراد منها فى أن الإنسان خليفة له فى الأرض.

وقد نتساءل..

ما معنى خليفة الله فى الأرض؟

والمعنى هو أن الله سخَّر للإنسان الوجودَ لينفعل له، ويتجاوب مع حركة الإنسان فيه، وضمن الله للإنسان مقومات الحياة الأساسية.

فإن شاء الإنسان أن يصيب ترف الحياة فعليه أن يجدّ وأن يجتهد وأن يتعب ويكدّ ليرفع مستوى الحياة إلى الترف.

إن الله أعطانا الماء من السماء والأنهار نشرب منه ونسقى به زرعنا

(١) عن أنس بن مالك قال: قال ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) والبخارى (٦٣٠٩).

ونسقى منه مواشينا، ولكن الماء لا يأتى إلينا، بل إننا نذهب إليه فى النبع أو النهر . . فإذا أردنا ألا نتعب أنفسنا، ولا نذهب كل يوم لنأتى بالماء . . فإن على عقولنا أن تفكر فى المادة التى سخرها لنا الله، وبالطاقة التى خلقها لنا الله . . لنصنع ما نرفّه به عن أنفسنا، نصنع خَزّانات فى أعلى المدن، وتمدُّ البيوت بالماء .

كيف صنعنا هذه الخزانات؟ لقد كان علينا أن ننظر فى الكون ونفكر أن الماء سائل . . والماء يميل إلى الاستطراق . . الماء إذا نزل من السماء ملأ المنخفض من الأرض، ومن هذا عرفنا كيف نرفع الماء إلى خزانات أعلى من البيوت، وأن نستغل قوة استطراق الماء كسائل، ولقد حدث ذلك بفكر الإنسان ؛ لأن الإنسان أراد أن يرفِّه حياته، ولا ترفيه إلا بعمل الفكر فى المادة المخلوقة للإنسان وبالطاقة المسخَّرة للإنسان .

إن الإنسان لم يصنع شيئاً إلا أنه أخذ العقل الذى خلقه الله، وفكَّر فى المادة التى خلقها الله، وبالطاقة التى خلقها الله، واستطاع أن يؤلف مجموعات من خلق الله ليرفِّه بها عن نفسه .

وهكذا توصَّل الإنسان إلى آلات رفع المياه وتوصيل الماء ذى الطبيعة الاستطراقية فيذهب إلى البيوت بمجرد فتح الصنابير .

تلك الراحة لم يشأ الله أن يعطيها للإنسان من عنده ؛ لأن فى منح هذه الأشياء بشكل مباشر تعطيلاً لمخلوقات خلقها الله، وتعطيلاً للعقل

الذى خلقه الله ليفكر ويستنبط ، وتعطيلاً لمادة خلقها الله للإنسان لينفعل بها ، وتعطيلاً لطاقة خلقها الله لتفعل وتنفعل بها الأشياء .

إذن : فقد أراد الله أن يمنح الإنسان طاقة استغلال كل ما خلقه له .. لا لشيء إلا لمصلحة الإنسان .

إذن : فطاعة الإنسان لمنهج الله ليست فى الواقع كما قد يتخيلها البعض على أنها طاعة لمصلحة الله .

لا ..

ولكنها طاعة لأمر الله ، ولمصلحة الطائع لله .

ولننظر إلى حكمة التشريع الإلهي .. إن التشريع الإلهى يؤكد أن الإنسان بفعله لطاعة الله فإنما يؤكد مصلحة الإنسان .

لا داعى لأن يقول الإنسان إذن أنه فعل الطاعة لمصلحة الله ..

ولكن ليقل الإنسان : إنه أطاع الله لصالح نفس الإنسان .

لماذا .. ؟

لأننا كما قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى له الكمال المطلق قبل أن يخلق الخلق ؛ لذلك فخَلْق الخَلْق لن يعطى الله وصفاً زائداً فى قدرته وجبروته وحكمته ؛ لأن الخلق أثر من آثار صفات الكمال .. فالخلق لا يحقق الكمال لله وإنما يحقق الكمال للإنسان .

إن منهج الله أراد به الخالق صالح المخلوق ، لا صالح الخالق .

إن الحق سبحانه وتعالى حين يبعث الرسل بالمنهج يريد أن يحدد حركة الحياة ، وحركة الحياة لها أمران :

الأمر الأول : أن نحقق بقاء النوع الإنسانى وبقاء حياة الإنسان ، ووفَّر للإنسان فى جنة التدريب التى أوجد فيها آدم ما يجعله لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحي ، تلك مقوّمات الحياة الكاملة للإنسان .

أنْ يحقق لنفسه عدم الجوع . . وذلك بالطعام .

أنْ يحقق لنفسه ما يستر سوءاته . . وذلك بالملابس .

وأنْ يحقق لنفسه عدم العطش . . وذلك بالماء .

وأنْ يحقق لنفسه عدم التعرض للشمس حين القيظ[1] . . وذلك بأن يكون له بيت .

لا جوع . . .

لا عري . .

لا ظمأ . .

لا قيظ . .

وقد يقول قائل : ما دام الله أراد للإنسان ألاّ يَضْحَىَ بالشمس ،

(١) أي : حين اشتداد الحرارة .

فلماذا خلق الشمس؟ وبعد ذلك يقى الإنسان منها؟

إن الشمس لها مهمة فى الإنسان وفيما يخدم الإنسان.

إن الجسد الإنسانى يحتاج حرارتها وضوءها.. صحيح أن العمل فى الشمس لوقت طويل يصيب الإنسان بالتعب.

ولكن للشمس مهمة فى الأرض.

لذلك خلقها الله شمساً ضاحية.

وخلق للإنسان ما يستره من الشمس.

تلك هى المقومات المادية للحياة.

ولكن الله يريد أن يُشعرنا أن هناك للنفس الإنسانية مَلَكَات فوق تلك المقومات المادية للحياة، ويحققها الله فى قوله:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

إذن: فلابد مع استكمال المقومات المادية للحياة، لابد من استكمال مقومات الحياة المعنوية.

إن الإنسان إذا وُجِدَتْ له هذه العناصر المقوِّمة للحياة ثم خاف من شيء، فإن حياته تتعكر، وصفوه يقل، وفكره يضطرب.. فجعل الله لذلك ضماناً.

ما الضمان؟

أن يؤمِّننا الله من أى خوف.

- فأنت خليفة فى الأرض.. والأرض وما فيها منفعلة لك.. فأقبلْ على الأرض المنفعلة لك، واعلم أنك ستنال منها ما يعطيك ترفك فى الحياة [1]. والله من وراء هذا كله، ولك أن تتصور أن الأرض أجدبت، وأن الزرع اجتاحته آفة من الآفات، فهل يريد الله منك أن تجوع أو أن تتعذب.

لا.. إن الله يريد منك ألا تقف عند الأسباب، ولكن أن تطمئن إلى وجود خالق للأسباب.

لأن الإنسان إذا عرف ذلك فإنه يصل إلى الإحساس بالأمن.

إذن: فالأمن يوجد بألا يعتمد الإنسان على الأسباب، إنما يعتمد على خالق الأسباب.. الله جلَّت قُدرته.

إن على جوارح الإنسان أن تعمل فى الأسباب التى خلقها الله، أن تزرع وأن تجدّ وأن تجتهد.. وأن تظل القلوب مؤمنة تتوكَّل على المسبِّب

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل].

لكل شيء .

ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى لأناس زرعوا وغرسوا وسقوا ، وبعد ذلك يأتى من الآفات ما يتلف الثمر . .

ماذا أراد الله بذلك؟

إن الله يريد ألاّ تفتننا الأسباب ، وأن نعرف أنه سبحانه وراء كل شيء ؛ ولذلك يطلق الله فى كتابه الكريم قضية كونية :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وذلك حتى يفهم الإنسان أن رزقه لا يأتيه من تعبه فقط ولكن بتقدير الله ، إن الذى تفتنه الأسباب قد يصيبه الله بضرر حتى يلتفت إلى أن الله وراء كل شيء ، صحيح قد يصاب الزرع بالتلف ولكن الزرع يُعوَّض ، ولكن الافتتان بالأسباب لا يُعوَّض ، ويتم الرزق من حيث لا يحتسب الإنسان .

والإنسان حين يعلم أن وراء كل الأسباب خالقاً لها ، فإن الإنسان لا يمكن أن يعتبر حياته قد ضاعت لمجرد بعض المتاعب فى أسباب الحياة ؛ لأن الإنسان يملك العزاء فى أن وراء كل الأسباب صانعاً خالقاً يعطى

بلا سبب ، ويرزق من حيث لا يحتسب الإنسان .

وعندما يحس الإنسان بذلك فإنه يطمئن ويستقبل كل أحداث الحياة برصيد إيمانى لا يتزعزع أبداً [1] فتنة بالأسباب .

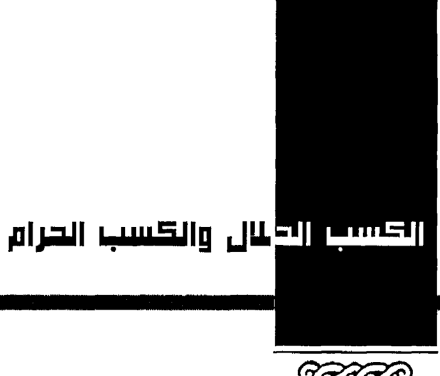
وهذا هو الذى يؤمِّن الإنسان من الخوف .

إن المؤمن إن ضاع كل سبب وبقى له إيمانه بالله . .

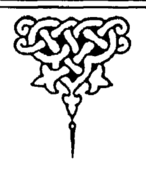
فقد بقى له كل أمل فى الحياة .

(1) عن صهيب الرومى قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٢) والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



الكسب الحلال والكسب الحرام



علينا أن ندقّق فى مصادر الرزق، حتى ننال بركة الرازق، ويتحقق بأسباب الله وبمنهجه ليكون رزقاً له متعة الرضى.

خلق الله حركة الإنسان كخليفة لله فى الأرض.. لرفاهية الإنسان وسعادته.. فمن أراد أن يسعد فليستعمل كل ما خلقه الله فيه، وكل ما خلقه الله له، فإن قصَّر الإنسان فى ذلك، فالتقصير ليس من جهة الذى جعل الإنسان خليفة فى الأرض، ولكن من جهة كسل الإنسان الخليفة فى الأرض.

وحركة الحياة تتطلب أن نوجِّه الطاقة التى خلقها الله، فى مادة مخلوقة بالله وبتخطيط وفكر مخلوق لله؛ لأن كل شىء مآل الفضل فيه إلى الله سبحانه.

وقلنا: إن مقومات الحياة المادية شىء، ومقومات حياة القيم فى النفس البشرية شىء آخر.

فقد يستكمل إنسان مقومات الحياة المادية، ويظل قلقاً مضطرباً فى الحياة، وذلك ما نشهده فى ذلك العصر [1].

فذلك العصر الذى ارتقينا فيه ارتقاء جعلنا نطأ القمر، وجعلنا نجول فى الفضاء، فى هذا العصر كان من المنتظر أن يسعد الإنسان وأن تسعد

(١) ومن الواجب أن يعمل الإنسان بحديث رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم آمناً فى سربه، معافى فى جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا» أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٤٦) وكذا ابن ماجه (٤١٤١) عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمى. قال الترمذى: حديث حسن غريب.

الإنسانية .

ولكننا نجد أننا كلما تَشَدَّنا تقدُّماً في مجال من المجالات التي نستنبط بها سراً من أسرار الله في الوجود ، نجد الشقاء يزداد بنسبة هذا الكشف .

إذن : فلا بد أن نبحث عن شيء مفقود .

لقد كان من المنطقي أننا بارتقائنا في كشفيات الحياة . . لا بد أن نأخذ سعادة بمثل ما اكتشفنا .

لكننا لم نأخذ إلا الشقاء ، والشقاء عام في هذا العصر .

إننا لا نجد قوة في هذه الأرض - مهما كانت - قد سَلِمَتْ من الفزع والاضطراب أو توتّر الأعصاب . . لا هدوء ولا استقرار .

ولو أن الاضطراب والتوتر والفزع كان في الأمم المتخلفة الضعيفة فقط ، لكان ذلك الأمر له مبرر .

لكن الاضطراب والتوتر والفزع والشقاء موجود في الأمم القوية أيضاً ، بل إن القوى الكبرى تتعرض لقوى أدنى منها تزلزل حركة أمنها وتصدم كبرياءها .

كل ذلك يحدث ، ولا بد أن نجد عنصراً مفقوداً .

هذا العنصر المفقود يتمثل في أن العالم وإن استقرت ماديته وإمكاناته بشيء من السعة . . هذا العنصر المفقود هو عدم الأمن من الخوف .

إن عدم الأمن من الخوف هو مشكلة الحياة في هذا العصر .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حين يلفتنا إلى قدرته وإلى قوته ، وإلى أن الإنسان ليس متروكاً كفريسة لأخيه الإنسان ، وأن الناس مهما كانت عندهم من حرية للحركة ، فكل البشر محكومون بحساب دقيق .

هذا الحساب يمثله قول الله تعالى :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

ولا بد أن نحذر الإنسان من أن يتخيل أن هذا الحساب يحدث في الآخرة فقط .

لا . .

إنه يحدث في الدنيا أيضاً .

وكل إنسان له صحيفة تكتب فيها الملائكة ما له وما عليه .

لذلك فقد يخدع الإنسان نفسه ، ويستغفل سواه ، أو يستغل غفلة سواه ، أو أن يأخذ ما ليس له .

إن علينا أن نقول لمثل هذا الإنسان :

- إنك تعيش بمنطق من كان موجوداً دون رقيب أعلى منه يسجِّل عليه أنفاسه وحركاته وسكناته، لكن هذا الرقيب موجود [1] وثقْ تمام الثقة أنك لن تخدعه، فإن حاولت أن تأخذ غير حقك فاعلَم أن غفلة ستصيبك فى جهات كثيرة، وسوف يُؤخذ منك ما هو غير حقك.

وليعلم كل منحرف فى الحياة أنه سيعانى من الانحراف فيما يخصه كما انحرف هو فيما يخص غيره.

ولا يمكن أبداً أن يسلم إنسان يطلق لنفسه عنان حركته فى الحياة إلا ويسخِّر الله قوماً يطلقون لأنفسهم عنان حركتهم فى الحياة بالنسبة له.

وإذا ما نظرنا إلى ما نسميهم منحِرفين أو منحرفات أو غاوين أو غاويات.. إذا نظرنا إلى تاريخهم وحسبنا حساباً دقيقاً مقدار ما انحرفوا فيه نجد أن الله بعدالته فى الأرض لا يؤخِّر ذلك للآخرة أبداً.

فبمقدار ما أغوت امرأة رجالاً.. بمقدار ما زهد فيها رجال.

وبمقدار ما استمالت من نفوس فإن الله يُذلُّ آخرتها فى الدنيا، بأن ينصرف الكل عنها انصرافاً مزرياً محتقراً، والذى كان يتمنى أن يحظى بنظرة واحدة لو رآها لبصق عليها.

---

(١) قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [سورة ق].

كل ذلك مقاصة في الحياة .

والذى يحسن النظر فى الكون . . لا بد أن يجد فى محيطه أمثال هذه الصور الكثيرة ، والذى عاث [1] فى الناس فساداً لو حسب ما يحدث فيه من فساد لوجد أن الأمر مقاصة .

والرسول ﷺ ينبهنا إلى قضية هى أخطر قضية فى حركة الحياة . . هذه القضية هى :

- إن الناس تحب الكسب ولكن الناس تنقسم قسمين :

*** قسم يحب الكسب بحقه فيكدح فى الحياة ليكسب .**

و . .

*** قسم يحب الكسب بلا كدح ، ويحب أن يتسلَّط على كدح الناس ليأخذه وعلى عرق الناس ليشربه .**

والقسم الثانى ينبههم الرسول جيداً إلى قضية . . أطلقها فى الكون عندما قال فى الحديث الشريف :

«من أصاب مالاً فى نهاوش أذهبه الله فى نهابر»[2].

---

(١) العيث : الفساد فى غير رفق .

(٢) أخرجه القضاعى فى مسند «الشهاب» حديث (٩٤) عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً، وهو ضعيف لا صحبة له . والآية تسانده فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] .

أى : أن الذى أصاب المال من غير وجه حق، فإن الله يسلّط عليه أموراً فوق طاقته، فلا يجد دفعاً لها إلا أن يصرف ما أخذه من مهاوش .

والرسول الكريم ﷺ لا يطلق قضية ليأتى واقع الحياة ليكذبها بعد ذلك، لأن الرسول ﷺ يعلم أن ذلك لو حدث سيكون فتنة لمن اتبعه، ويقولون : «لقد قال الرسول ﷺ كذا ولم نر له أثراً فى الكون» .

ولذلك فالرسول ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى قال هذا الحديث وهو يعرف أن ما فيه سوف يتأكد فى دنيا الناس وحياتهم، قال هذا الحديث :

" من أصاب مالاً فى نهاوش أذهبه الله فى نهابر "

وأنا أكررها حتى نحفظها جيداً، وحتى نجعلها دستوراً لنا فى حياتنا .

إن الذى يخدع الآخرين فيأخذ حقوقهم فإن الله يسلط عليه همّاً وغمّاً وفزعاً . . يأكل المال الحرام . .

يمرض الابن مثلاً فيأخذ المرض المال الذى جاء من حرام .

لأن الحق وهو قيوم لا تأخذه سنة [1] ولا نوم لا يمكن أن يدع خلقاً يستغل خلقاً آخر، فيقول للمستغل :

- أنت استغللت مجهود بشر فانظر ما فتحته أنا عليك من أبواب تأخذ منك كل ما استغللته من مجهود الآخرين .

(١) السِّنة : النعاس، وهو أول النوم .

ولذلك فالله لا يؤخر هذا الأمر إلى الآخرة .

لماذا ؟ !

لأن حركة الحياة تفسد لو تم تأخير ذلك إلى الآخرة .

ولو لم ير الناس مصارع [1] القوم الذين استغلوا ضعاف الناس لفسدت حركة الحياة ؛ ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يجعل البشر يرون فى الحياة ما يؤكد قول الرسول الكريم ﷺ :

" من أصاب مالاً فى نهاوش أذهبه الله فى نهابر "

إذن : فالذى يخدع لا يخدع سوى نفسه .

وقد يظن بعض الناس أنهم يخادعون الله ، ولكنهم ما يخادعون سوى أنفسهم [2] .

قد يقول قائل من هؤلاء :

- أنا أريد أن أرتاح وآخذ تعب الآخرين .

لكن هذا الصنف يخادع الله ، والله يخادعه .

وعلينا أن نقارن خداع الله بخداع البشر المخلوقين .

(١) مصارع القوم : المقصود مصرع الظالمين والمفسدين فى الأرض .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [البقرة] .

إن هذه المقارنة لا طاقة لأحد بها ؛ لأن الله يفتح أبواباً فوق الأبواب التى أخذ منها الإنسان ما لا يستحق .

إذن : هذا هو نظام فى الكون .

وهناك نظام آخر يشيعه الله فى الكون ، وهو الإيمان بخلق الأمن .

معنى إنسان آمن . . أن كل شىء يصيبه الإنسان من غير حركة منه لا بد أن يقدر فيه الخير .

وما دام الإنسان يقدّر فى مثل هذا الأمر الخير ، فهنا لا تكون طاقته الفكرية ضائعة فى الحزن على شىء أبداً .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل مادة تكويناً طبيعياً يكون به قوام الحياة ، فحاجات الإنسان من زينة وطعام وشراب تدور فى إطار الآية الكريمة :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الأعراف]

الأمر للإنسان أن يكون أنيقاً عند دخول المسجد بأناقة الملبس وأناقة الروح . . أى : الملبس النظيف والروح الممتلئة بالتقوى . . وليتمتع الإنسان بالطعام والشراب دون إسراف ؛ لأن الله لا يرضى عن المسرفين .

والرسول ﷺ يعطى المذكرة التفسيرية لعدم الإسراف فيقول :

"نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع "

ولنركيف يعيش الإنسان الذى لا يأكل إلا إذا جاع، وإذا أكل لا يشبع مما أكل . . هذا الإنسان لا يصاب أبداً فى جسده، ولا يفسد أى جهاز فيه أبداً.

ولكننا نجد من الذين يخالفون ذلك مصابين بالكثير من الأمراض.

لأن الإنسان ليس معدة فقط . . بل هو ملكات متعددة . .

الإنسان عنده حركة عقلية.

الإنسان عنده حركة عاطفية.

الإنسان عنده حركة سلوكية.

كل هذه حركات فى النفس الإنسانية؛ ولذلك عندما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١] فذلك من أجل الحفاظ على حياة الإنسان خالية من المرض.

ولو نظرنا إلى ذلك من الناحية الاقتصادية . . لوجدنا أن الرسول ﷺ حينما شرع: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» فهذا مستوى اقتصادى رفيع . .

لماذا؟ . .

لأن الإنسان إذا جاع فأىُّ طعام يكفيه .

ونحن نلوّن فى الأطعمة حتى نحمل أنفسنا على الأكل .

وهناك فرق بين أن تحملك نفسكَ لتأكل . . وأن تجبر نفسك لتأكل .

قوام الحياة واعتدالها أن تحملك نفسك لتأكل . . وعند الجوع فإن أى كسرة خبز تكفى الإنسان .

ولذلك فطن العربى الأول إلى هذا فقال :

- نِعْمَ الإدامُ الجوع .

وهذا معناه أن أفضل طعام يأكله الإنسان وهو جائع ، ففى لحظة الجوع يستطعم الإنسان إذا أكل بملح .

ويستطعم الإنسان إذا أكل بدون ملح .

وإن أكل الإنسان خضاراً ذابلاً يكون جميلاً .

وإن أكل بقايا طعام من الأمس يكون جميلاً .

إذن : ما الذى يجعل الطعام غير جميل؟

الذى يجعل الطعام غير جميل هو أن يجبر الإنسان نفسه على الطعام فيطلب مُشهِّيات ومقبِّلات . . ثم الطعام بعد ذلك .

لكن . .

لو أخذنا الحكمة بأننا لا نأكل حتى نجوع . . لكان كل طعام شهياً .

ولنضرب مثلاً يحدث لبعض الناس . . يدخل الرجل بيته وهو جائع ، ولنفترض أن أسرته ستأكل فى هذا اليوم ديكاً رومياً . . لكن الديك لم ينضج بعد على النار . نجد هذا الرجل يدخل إلى المطبخ ويبحث عن طبق سلطة مثلاً أو يتناول لقمة من هنا ولقمة من هناك ، إلى أن ينضج الديك الرومى . . وبعد ذلك يطلبون الرجل إلى تناول الطعام فيحس بالشبع .

وهكذا نرى أن نِعْمَ الإدام هو الجوع . . أى : أفضل غموس هو الجوع نفسه .

إن الذى يجعل اقتصاديات الأفراد منا مرهقة هو الترف . .

الواحد منا يجبر نفسه على الأكل . .

ولا ينتظر الواحد منا الجوع فيريد أن يأكل . .

ولو تناول كل منا الطعام على قدره . . لكان كل طعام كافياً . .

وبعد ذلك يأتى الرسول ﷺ ويعطينا تعاليم أثبتها العلم بعد ذلك . . ولكن الرسول ﷺ قالها لنا ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى .

علَّمنا الرسول ﷺ أننا عندما نأكل فلا بد أن يكون ثلث المعدة للطعام

وثلث المعدة للشراب وثلث المعدة للهواء [1] ، وهذا حتى لا تمتلىء المعدة فتضغط على الحجاب الحاجز .

إن العلم تعرَّف على أن ضغط المعدة المتخمة [2] على الحجاب الحاجز يكون سبباً فى أن الرئة يقل حجمها وتقل قدرة الإنسان على التنفس .

لكن لو رحم الإنسان معدته بثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث لحساب التنفس لأخذت الرئة القدر الكافى من الهواء .

إن بعض البشر يقعون فى أعراض أمراض خطيرة : كالذبحة الصدرية ، أو أمراض القلب ، ويثبت بعد ذلك أن الذى حدث لهم هو توهُّم لهذه الأمراض نتيجة ازدحام المعدة بالطعام .

وهكذا نرى أن الله يعلّمنا من خلال رسوله ﷺ كيف نتعامل مع ماديات الحياة ، ولا يترك قيم الحياة ومعنوياتها دون أن يعلّمنا عنها .

لقد قال العلم : إن الانفعالات الإنسانية تميز الإنسان عن الحيوان .

والانفعال بالسرور أو الحزن قد يؤثر فى تكوين واستقامة أجهزة الإنسان .

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن النبى ﷺ قال : «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» . أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وأحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) وصححه الترمذى .

(٢) المتخمة : المملوءة بالطعام .

ويريد الله لنا صيانة الأجهزة الإنسانية والملكات المستترة التى لا يعرفها إلا من خلقها، فيقول فى كتابه الكريم:

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ [الحديد]

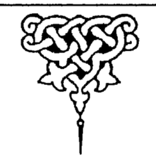
إن الإنسان يصل إلى حالة من الصحة النفسية لا مثيل لها عندما لا يقع فريسة لانفعال الحزن على ما ضاع منه، ولا يقوده حزنه إلى السخط. ولا يتأرجح من الحزن الساخط إلى الفرح الذى يصل به إلى الغرور.

إن الإنسان بهذا الأسلوب المؤمن يصل إلى أرقى ما يتمناه أىّ إنسان، وهو أن يكون مستقيم التكوين.

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



التخلص من الاكتئاب



هذا الزمان . . زمان الحزن والكآبة .

آلاف البشر يشكون من الاكتئاب .

وعلاج ذلك يكمن فى آية قرآنية تقول : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ (الحديد)

وضع الحق تبارك وتعالى منهج الهداية فى كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ وحدد مقومات ماديات الحياة ومقومات معنويات الحياة .

ولقد تحدثنا عن مقومات ماديات الحياة .

والآن نتكلم عن مقومات القيم المعنوية للحياة .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ (الحديد)

هكذا يرشدنا الله بمنهج واضح لتكون حركة الإنسان فى الحياة قادرة على استقبال أحداث الحياة .

إن وجود الأحداث فى الحياة أمر طبيعى ، ولا بد أن تكون عند الإنسان مناعة ضد الأحداث .

وما دام الإنسان متغيراً من ظرف إلى آخر . .

وما دام الإنسان يحيا فى عالم متغير . .

لذلك فإن على الإنسان أن يُوطِّن نفسه على وجود الأحداث .

والحق سبحانه وتعالى يُوجِّه الإنسان ألاَّ يعيش حدثاً ما فى غير زمنه .

فيجب ألاَّ يظل الإنسان أسير ما فات من أحداث ، وعلى الإنسان أن ينهى انشغاله بحدث قديم ، والأحداث القديمة نكتفى منها بأن نأخذ العبرة للمستقبل .

أما أن تكون ذكريات الإنسان عن أى حدث سابق مثبطة للإنسان وسارقة لهمَّة الإنسان وتجعل الضعف يتسلل إلى فكر الإنسان وطاقته . . فهذا يعنى أن الماضى يمتد إلى المستقبل ويدمره . . وهذا الأسلوب فى التعامل مع الحياة ليس من العقل فى شىء .

وأيضاً . .

على الإنسان أن يُوطِّن نفسه على أن الأشياء التى تأتى إليه وتعجبه فعلى الإنسان أن يستقبلها كنعمة من الله ويحمد الله عليها . . ولكن على الإنسان أن يحذر من الفرح [1] المبالغ فيه ، لأن النعمة فى حدّ ذاتها

---

(١) الفرح هنا : البطر والأشر . ومادة الفرح وردت فى القرآن بهذا المعنى ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] إلا فى آيتين ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران : ١٧٠] ، وقوله : ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : ٤].

غير مُفرحة إلا بشرط واحد هو أن يوفق الله الإنسان إلى مصارف هذه النعمة وكيفية استخدامها الاستخدام الصحيح .

لأن النعمة فى حَدِّ ذاتها قد تضر الإنسان . . النعمة قد تقود الإنسان إلى الطغيان ، وقد تغرى الإنسان بمعاص وذنوب .

لذلك كان الأمر السماوى الواضح ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

[الحديد : ٢٣]

لماذا لا يفرح الإنسان بما آتاه ؟

إن الإنسان عليه أن يفرح عندما يوفقه الله لاستخدام ما منحه الله من نعمة الاستخدام الأمثل .

ولهذا يبيِّن الله لنا هذه القضية التى تدور حولها حركة الكون والآمال فى الناس جميعاً .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ [١] عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾

[الفجر]

---

(١) قدر عليه رزقه : ضيَّقه عليه .

هكذا يرى الإنسان ظواهر الأمور . . فيظن أن النعمة تكريم من الله وليست امتحاناً من الله . . ويظن أن تقدير الرزق إهانة وليس اختباراً .

هذا هو المنطق الغائب .

وتأتى الإجابة من الرحمن عز وجل :

﴿كَلَّا﴾ [الفجر : ١٧] أى : أن منطق استقبال النعمة كتكريم هو منطق خاطئ . . ومنطق استقبال تقدير الرزق كإهانة هو منطق خاطئ .

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ [١] أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا [٢] ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]

إن الله يكشف عن أخطاء استخدام النعمة .

فصاحب النعمة قد لا يكرم اليتيم . . وهنا تصبح النعمة ليست سوى امتحان صعب . . انتهى بفشل مَنْ ضَنَّ بالنعمة ولم يحسن استخدامها ، إن النعمة هنا حجة على ذلك الإنسان وليست فى صالحه .

لذلك فليس الإكرام هو أن تأتى الإنسانَ النعمةُ ، ولكن الإكرام أن يستخدمها الإنسان الاستخدام الصحيح .

---

(١) التراث : الميراث وما يتركه الميت من مال أو عقار أو غيره.
(٢) حباً جماً : شديداً.

إن النعمة ليست أبداً فى عدم إكرام اليتيم ، وليست فى التهرب من تحمُّل مسئولية إطعام المسكين .

إن النعمة عندما تكون هرباً من إكرام اليتيم ، وهرباً من إطعام المسكين فإنها تتحول إلى ذنب .

فالإنسان قد تأتيه النعمة ، فيقع فى الذنب ، ويقع فى حب المال والطمع والجشع . .

لذلك فقد يكون سلب النعمة شيئاً غير مهين للإنسان ؛ لأن الإنسان قد تأتيه النعمة فيصرفها فيما يبغضه الله .

والحديث القدسى يرتّب درجات من يحبهم الله ومن يبغضهم :

* أحب ثلاثاً ، وحبى لثلاث أشدّ :

أحب الغنى الكريم . . وحبى للفقير الكريم أشدّ .

وأحب الفقير المتواضع . . وحبى للغنى المتواضع أشدّ.

وأحب الشيخ الطائع . . وحبى للشاب الطائع أشدّ.

* وأبغض ثلاثاً ، وبغضى لثلاث أشدّ :

أبغض الغنى المتكبر . . وبغضى للفقير المتكبر أشدّ.

وأبغض الفقير البخيل . . وبغضى للغنى البخيل أشدّ.

وأبغض الشاب العاصى . . وبغضى للشيخ العاصى أشدّ .

هكذا نرى أن هناك محبوبين من الله على درجتين :

* درجة الحب فقط .

و . .

* درجة الحب الشديد .

يحب الله الغنى الكريم الذى يفهم أن المال اختبار ، وأن الفائض يجب أن يذهب إلى مَنْ يستحق ولا يملك .

ويحب الله الفقير الكريم أشدَّ ، لأن الفقير رغم حاجته فهو يحاول بالكرم أن يقيم فى المجتمع استطراقاً كسبياً [1] ، وأن يرعى حاجة مَنْ لا يقدر أنْ يُشبع احتياجه .

ويحب الله الفقير المتواضع ؛ لأنه يعرف ألم الآخرين ويعانى منه ، فيجد فى الطيبة وحُسْن معاملة الآخرين راحةً ومشاركة .

أما حب الله للغنى المتواضع فهو أشدّ ؛ لأن الغنى المتواضع يملك أسباب الكبرياء ولا يتكبر .

---

(١) استطراقاً كسبياً : أى : يعطى قدوة ، لأن يعطى من معه لمن ليس معه مثل نظرية الأوانى المستطرقة ، التى فيها تنتقل السوائل من محيط مملوء إلى محيط خال ، وقد لخص العوام هذا فى مثل شعبى : «المليان يكب على الفاضى» .

ويحب الله الشيخ الطائع ؛ لأن الشيخ الطائع عرف الدنيا والطاعة اختياراً ينجى الإنسان من فساد ما تغرى به الحياة ، إنها طاعة الحكمة .

أما حب الله للشاب الطائع فهو أشدّ ؛ لأن الشاب الذى يختار الطاعة يملك إمكانات المعصية ولكنه ينأى بنفسه عن الانزلاق فى المعصية .

ولو لم يكمل هذا الحديث مَنْ يبغضهم الله لأمكننا أن نستنبط من وحى هذا المنهج هؤلاء الذين يبغضهم الله .

إننا عندما نتساءل :

* من يبغضهم الله ؟ . .

إنه يبغض الغنى المتكبر . . هذا الذى يملك أسباب التكبر ويحيا أسيراً لها وداخل دائرة سجنها ، ولا يملك من البصيرة ما يعرف به أن الأسباب ليست كل شىء ، فهناك صانع كل الأسباب ، وأنه خليفة فيما منحه الله له . .

أما لماذا يبغض الله الفقير المتكبر ، فالفقير لا يملك أسباب الكبر ويعرف بمعاناته ألم الآخرين ، ولكنه يزين لنفسه سجناً من التكبر يحبس فيه نفسه عن التواضع والسماحة .

ويبغض الله الفقير البخيل . . لأن الفقر كان يجب أن يكون درساً يتعلم منه الإنسان أن احتياج الإنسان قد يسبب له من الذل والمهانة ما

لا يجب أن يعانى منه الإنسان .

ولكن الله يبغض الغنى البخيل بغضاً أشدّ . . لأن الفقير لو جاءه البخل فقد يكون عن احتياج ، أما الغنى البخيل فهو لا يملك إلا الإحساس بالضَّعة [١] ومحاولة إخفاء نعمة الله عن أصحاب الحق فيها .

والله يبغض الشاب العاصى ؛ لأنه لا يترفع عن المعصية رغم التبصير الواضح بمنهج الله . . ولكن الله يبغض الشيخ العاصى أشدّ لأن الشيخ لا يملك مقومات المعصية ، ويزرى [٢] نفسه متناسياً منهج الله وتجربة الشيخ فى الحياة .

وهكذا نرى أن مقومات الحركة فى الحياة مُحدَّدة بالمنهج الذى يغطى الحياة المحبوبة الحب الأشدّ من الله .

فإذا عاش الإنسان فى مجتمع يتميز بما يلى :

* الفقير فيه كريم .
* الغنى فيه متواضع .
* الشاب فيه طائع .

فلا بد أن يكون مجتمعاً يعيش الكل فيه راقياً .

---

(١) الضعة : الاحتقار والمذلة .
(٢) يزرى نفسه : يضع نفسه فى موضع يحتقره الناس فيه .

آما الإنسان إذا ما عاش فى مجتمع يتميز بصفات تضاد هذه الصفات وهى :

* الفقير فيه متكبر .

* الغنى فيه بخيل .

* الشيخ فيه فاسق .

فمما لا شك فيه أن مثل ذلك المجتمع هو مجتمع الحضيض .

لكنَّ هناك أيضاً بين هذين المجتمعين . . مجتمعين آخرين يختلط فيهما الكرم مع البخل ، أو التكبر والتواضع ، أو الفسق والطاعة . . كُلٌّ بدرجات .

إذن . .

فحركة الحياة عندما يحددها الله بالآتى :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ [الحديد]

عندما يحدد الله حركة الحياة بهذا المنهج . . فقد يقول قائل :

- إن النعمة إذن قد تكون فتنة ؛ لأن الإنسان قد لا يؤدى حق الله فيما أنعم به على الإنسان . . فلماذا إذن يوصى الله عباده " لاتأسوا على

ما فاتكم؟ "

ما معنى الأسى إذن ؟

إن الأسى هو شَغْل النفس بما لا يُجدى .

إن مَنْ يغرق فى الأسى يفقد الوقت والطاقة فيما لا يجدى ؛ لأن الذى يعمل هو الذى ينتصر على مرارة الفشل السابق ، ويظل الإنسان أسير عدم القدرة على تجاوز الآلام الماضية ، ويظل الإنسان فاقداً للقدرة على تعويض ما فات .

ويظن الإنسان أن الآلام السابقة هى التى تحاصره ، وهى التى صنعت كل بؤس حياته . .

وهكذا يدور الإنسان فى حلقة الخوف والهموم .

والخوف قد يعرف الإنسان مصدره .

أما الهموم فتأتي من ظروف معقدة قد يعرف الإنسان مصدرها ، ولكن حتى مع معرفة المصدر فليس لصاحب الهموم قوة على دفع الهموم . . والذى لا نعرف مصدره يساوى ما لا قوة للإنسان على التصدى له .

وهذا أشدّ ما يفتك بالنفس الإنسانية .

إن أسى الإنسان على أمر لا يعرف مصدره .

أو أسى الإنسان على أمر يعرف مصدره ولا قدرة للإنسان عليه . . فهذا هو الهمُّ المعقد .

وكلنا نعرف أن الإمام عليّاً كرم الله وجهه كان قوياً بين الشباب ، وهذا أمر طبيعى لأن الإسلام أدرك علياً وهو صبى صغير ، ولم يدخل ذهنه معلومات من الجاهلية ، كل المعلومات التى دخلت عقل علىٍّ كانت من الإسلام .

كان تفاعله مع الخير كله . .

ونحن نعرف أنه لم يسأله أحد عن شىء إلا وفتح الله عليه حتى قيل عنه : "بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن" .

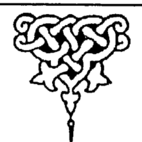
وكان على كرم الله وجهه يقول :

"الهمُّ أشد جنود الله . . " .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



الإيمان والشفاء من الهم



إن خصوم الإسلام يريدون حَصْر الإسلام فى أنه عبادات فقط ، لكن الإسلام أسلوب وتفكير وحياة وجدان وحركة سلوك يمشى بها الإنسان ليعمر الكون بمنهج المكوِّن وبإيمان الموحِّد، وفى ذلك شفاء من الهمِّ والغمِّ والكرب .

كانت قولة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه :

" بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن " قولة ذات دلالة .

وسبب هذا القول من سيدنا عمر أن صحابياً جليلاً أظنه حذيفة دخل على الخليفة عمر بن الخطاب ، فسأله سيدنا عمر السؤال التقليدى :

- كيف أصبحت ؟

فأجاب حذيفة :

- أصبحت أحب الفتنة .

وأكره الحق . .

وأصلى بغير وضوء . .

ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . .

وعندما سمع الخليفة عمر هذا الرد غضب . . ودخل عليه على بن أبى طالب فى لحظة غضبه هذه . فقال سيدنا على للخليفة عمر بن الخطاب :

- ما لى أراك مُغضَباً يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر بن الخطاب :

- سألت حذيفة عن حاله فقال : " أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء " . .

فقال على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه :

- لقد صدق يا أمير المؤمنين .

فقال عمر بن الخطاب :

- أو تقولها يا أبا الحسن ؟

فقال على :

- نعم . . فقد أصبح يحب الفتنة . . أى : يحب مـــاله وولده . .

﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : ٢٨]

وأصبح يكره الحق . . أى : يكره الموت .

ومَنْ منّا يحب الموت يا أمير المؤمنين ؟

ويصلى بغير وضوء . . أى : يقول : اللهم صَلِّ وسلم على سيدنا محمد .

وله فى الأرض ما ليس لله فى السماء . . أى : له زوجة وولد .

فقال سيدنا عمر بن الخطاب :

- بئس المقامُ بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ونفهم من هذا الحوار أن بعض الألفاظ حين تطلق فإن الألفاظ تحمل معانى متعددة ، ويذهب الذهن غالباً إلى معنىً هو القمة فيها ، بعد فحص الألفاظ وفهم المعنى الذى وراءها .

أما سيدنا عمر فقد خشى من اللفظ أن يؤدى إلى معنى خاطئ . . فعندما قال حذيفة : أحب الفتنة ، وأصلى بغير وضوء ، وأكره الحق ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . . عندما قال حذيفة ذلك خشى عمر معناها الذى يضيع به الإيمان ، وعندما دقق فيها على بن أبى طالب وقاسها بالفكر المحقق على من قالها . . فوجد فيها إيماناً عميقاً .

فحذيفة كما يعرفه على بن أبى طالب هو صحابى مؤمن ، وعندما يقول حذيفة : إنه يصلى بغير وضوء فإن علياً يفهم أن هذا الرجل الورع إذا قال ذلك فهو يعنى الدعاء أو الصلاة على سيد البشر محمد ﷺ ، ولا يمكن أن يعنى بذلك الصلاة المبدوءة بالتكبير والمختومة بالسلام . . لأن هذه الصلاة شرطها الطهارة .

إذن . .

فالمهم أن نعرف المعنى الأساسى ، والذى يعنيه القائل ، ومَنْ هو هذا

القائل .

إن سيدنا عمر عندما سمعها أول مرة غضب لها . . وعندما فسرها على بن أبى طالب جلب له هذا التفسير السرور ، وهكذا رأينا أن الذى انفعل ضدها أولاً . . هو الذى انفعل بالسرور لها ثانياً . . وهذا يدل على أن العقل مهمته أن يفكر ، ويأتى بالتفسير المناسب للموقف .

إن سيدنا علياً كان مشهوراً فى الشباب بالقوة ، ولم تكن القوة قوةَ جسد فقط ، ولكنها قوةُ عقل ومنطق .

وقال الناس : نريد أن نمتحن على بن أبى طالب .

وكانوا قد اختلفوا حول أقوى مخلوقات الله . وذهبوا إلى سيدنا على فقالوا :

- يا أبا الحسن نريد أن نعرف أىَّ خَلْق الله أقوى من الآخر ؟

ولم يُفاجَأ على بن أبى طالب . وبسط يديه فى هدوء ، وقال :

- أشد جنود الله عشرة :

الجبال الرواسى .

والحديد يقطع الجبال .

والنار تذيب الحديد .

والماء يطفئ النار .

والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء .

والريح يقطع السحاب .

وابن آدم يغلب الريح . . يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته .

والسُّكْر يغلب ابن آدم .

والنوم يغلب السُّكْر .

والهَمُّ يغلب النوم .

فأشد جنود الله الهمّ .

وإذا نظرنا إلى هذا الترتيب المنطقى . . فإننا نجد الهموم أشد الأحاسيس تدميراً للإنسان ، والهموم هى تيارات من المخاوف والمشاعر تستبد بالنفس الإنسانية فتبدد طاقتها ، وتبدد ملكاتها ، وتجعل المصيبة فيما فات ، وتؤكد الإحساس بالكارثة فيما هو آت .

وإذا أراد الإنسان أن ينتصر على الهموم فلا مخرج منها إلا الإيمان .

إن المؤمن يعرف أن المصائب تصنعها يد الإنسان ، ودرسها الحقيقى أنها تعيد تربية الإنسان حتى يتلافى تكرار البلاء .

مثلاً . .

التلميذ الذى رسب فى الامتحان لأنه لم يستذكر .

العين الفاحصة ، والقلب المؤمن ، والتفكير المنطقى . . كل ذلك يقول :

– ليس الرسوب فى مثل هذا الموقف خسارة ؛ لأنه تربية للإنسان أن يكون مسئولاً عن إتقان عمله ، فيجد النجاحَ نتيجة منطقيةً لعمله .

وإذا نظر الإنسان إلى الأمور التى تصيبه . . فسوف يجدها نوعين :

– نوعاً يسببه الإنسان لنفسه بحركته .

– ونوعاً يحدث للإنسان ، ولا دخل له فيه .

الأمر الذى يحدث للإنسان نتيجة لعمله ، فإن اللوم هنا يجب أن نفحصه بعين الثقة والفهم ، فالإنسان يغضب من نفسه ، وإذا كان عاقلاً فإنه يستفيد من التجربة ، ومعنى ذلك أن المستقبل يعطى الفرصة لتصحيح خطأ الإنسان .

أما الأمر الذى يحدث للإنسان ، ولا دخل للإنسان فيه . . فإن المؤمن يستقبل هذا الحدث بروح أن الخالق أراد تأديب الإنسان ؛ لأن الله حكيم لا يُجرى على حياة الإنسان إلا ما يُصلح حياة الإنسان . فإن قال العقل " لا " . . هنا علينا أن نقول للعقل : " أنت من صُنْع الله " وهل رأيتَ من البشر أخرقَ أحمقَ يأتى إلى صنعة له فيتلفها ؟ هل رأيت نجاراً – مثلاً –

يمسك بمنشار ، ويدمر به دولاباً جميلاً قد صنعه من قبل ؟!

إن الإنسان لا يتلف ما يصنعه . . فما بالنا بالحكيم ذى الجلال والإكرام ؟

هل يمكن أن نصدِّق أن الله يُتلِف ما يصنع ؟!

لا . .

إن الله لا يأتى لحياة الإنسان إلا بما يُصْلِح هذه الحياة .

وقد يدرك الإنسان ذلك . .

وقد لا يدرك الإنسان ذلك .

لكن . .

ليطمئن الإنسان أن كل عمل يحدث للإنسان من غير اختيار فلا بد أن يكون فيه خير . .

إن الإنسان قد خلقه الله .

إن الله لا يريد سوءاً بإنسان .

وعلى سبيل المثال . .

الأب يعرف أنه سبب وجود الابن . . لذلك يتجه الأب بكل عاطفة الأبوة فى نفسه إلى ما يرهقه حتى يرتاح الابن . الأب يفعل ذلك ، وليس له فى خَلْق الابن سوى أنه سبب . .

وعلى هذا القياس ، ولله المثل الأعلى ، أليس للذى خلق السبب فى الإيجاد . . عاطفة كعاطفة الأب ؟

إن عاطفة الله ورحمته وسعتْ كل شىء (١) .

إننى أقول دائماً : " من له أب فلا يحمل هَمَّ شىء " ؛ ذلك لأن الذى ليس له أب قد يصرخ من غلاء الأسعار ، أما الذى له أب فهو لا يحمل هَمّاً .

الأب يشقى ، ويتعب ، ويجاهد فى سبيل راحة الأبناء ، ويُحِسُّ بالرضا .

إذن : فما بال الذى له رب . . له إله قَيُّوم (٢) ؟

أليس لقلبه أن يخشع بالأمان والإيمان والاطمئنان .

وهكذا . . فالمؤمن الذى يعرف أنه فى هذا الكون قد يقابل أحداثاً . . منها ما شارك فيها وتحمَّل نتيجتها فأدَّبته . . ومنها ما ليس له دخل فيها وهى من الخالق يُربِّى بها الإنسان . . والخالق لا يعطى للإنسان إلا

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : قدم على النبى ﷺ سبى ، فإذا امرأة من السبى تحلب ثديها تسقى ، إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال لنا النبى ﷺ : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا . وهي تقدر على أن لاتطرحه فقال : «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) قيوم : قائم على أمور خلقه بالتدبير والإصلاح ، ومن مستلزمات هذه القيومية أنه لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾

[البقرة : ٢٥٥] .

ما يصلحه ، حتى ولو لم يَدْرِ الإنسان وجه الصلاح فيها .

ومثال ذلك :

فقد يأخذ الوالد ابنه الحبيب الذى قد يكون وحيداً إلى الطبيب .

ويأمر الطبيب بعلاج ما ، قد يكون العلاج مؤلماً للطفل ، كإجراء جراحة مثلاً ، الأب يفعل كل ما يأمر به الطبيب رغم إرادة الابن .

والابن قد يكره فى لحظة الألم والده والطبيب والعلاج .

لكن الأب يفعل ذلك من أجل خير الابن .

والابن لا يدرك ذلك فى نفس اللحظة التى يتألم فيها .

لكن الابن يحصل على الشفاء والعافية نتيجة لانتباه الأب للخطر . .

وعندما يكبر هذا الابن ويصبح له أولاد ، فلسوف يحرص على أطفاله بنفس طريقة حرص والده عليه قديماً .

وهكذا يدرك الحكمة فيما صنعه والده قديماً ، ويعرف قيمة ما فعله والده عندما كان أقلَّ فكراً ووعياً .

إذن . .

فالإيمان مَيْزته أنه يحذف الهَمَّ من حياة الإنسان .

إن الذى يسبب هَمَّ الإنسان هو قلة الإيمان . .

أما الإيمان بأن للإنسان إلهاً هو فوق الأسباب كلها ، هذا الإيمان يخلق فى الإنسان قدرة على عدم الاستسلام للهموم ، بل ومن ميزة الإيمان أنه يحذف الهموم من حياة الإنسان ؛ لأن الإنسان المؤمن يثق أن هناك إلهاً فوق كل الأسباب . . ولهذا فلا بد أن يؤتمن الإنسان على منهج الله ، هذا المنهج خلقه الله للإنسان ليصلح فى حركة هذه الحياة .

ومنهج الله يتمثل فى :

* افعل كذا . .

* لا تفعل كذا .

والحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا المنهج . . فقد بيَّن ما فيه أيضاً من قواعد ، هذه القواعد هى التى نسميها الأركان .

ومعنى "الأركان" أى : الأساس الذى نبنى عليه البنيان الذى نريده .

فإذا سمعنا قول الرسول ﷺ :

"بُنى الإسلام على خمس :

شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . .

وإقام الصلاة . .

وإيتاء الزكاة . .

وصوم رمضان . .

وحج البيت . . . " (١)

فهذه الأركان الخمسة ليست هى كل الإسلام . . لكنها الأسس التى تَمَّ بناء الإسلام عليها .

وبذلك يكون تفسير الإسلام على أنه خمسة أركان فقط . . هو قصور فى فهم الإسلام .

لأن هذا التفسير يقصر الإسلام على أنه العبادات التى هى مجرد أسس فقط لبناء الإسلام .

ومثل هذا التفسير يجب أن نقول له :

- أنت جمَّدْتَ الإسلام ، وجعلت الأسس التى جعلها الله أركاناً للإسلام هى كل الإسلام ، لكن الإسلام أكبر من هذا . . الإسلام عقيدة ومنهج يرتفع فوق هذه الأركان .

الإسلام أسلوب تفكير ، وحياة وجدان ، وحركة سلوك ، يمشى بها الإنسان فى حياته .

ومثال ذلك . .

إذا قلنا : إن "بيتاً" أقيم على خمسة أركان . . فإننا نعرف أن البيت

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

ليس هو الأركان . . البيت شقق وغرف وسُلَّم ومصاعد وشبكات للمياه والمجارى ، وبشر يعيشون فى هذا البيت بأسلوب وعادات وتقاليد .

لكن هذا البيت لم يكن لِيُقامَ لولا أركانه .

وهذا البيت أيضاً لم يكن لِيعمُرَ بحركة الحياة وانتظامها لولا نظامه الداخلى والبشر الذين يعيشونَ فيه .

ولذلك فعندما نسمع حديث الرسول ﷺ : "بُنى الإسلام على خمس" فعلينا أن نعرف أن الإسلام قد جاء ليشمل كل حركة فى الحياة من قمة أن نعتقد ونقول : " لا إله إلا الله " إلى أن نسلك السلوك المؤمن الذى يهتم بكل شىء حتى التفكير فى أن نزيل الأذى عن الطريق .

وبذلك يكون كل عمل من هذه الأعمال هو إصلاحٌ لحركة الحياة . .

وهذا هو الإسلام .

الإسلام إذن ليس أن نصلى ونصوم ونزكّى ونحجّ ونؤمن باليوم الآخر تلك هى الدعائم فقط .

تلك هى الدعائم التى بُنى عليها الإسلام .

وخصوم الإسلام يحاولون أن يقصروا معنى الإسلام على أنه " أركان فقط " . . وهم مفتونون بعقولهم ، ويحاولون أن يقننوا لحركة الحياة وفق أهوائهم ، وعلى غير ما قرر الإسلام . . فيقولون : "المساجد

مفتوحة . . فَلْيُصَلِّ مَنْ يريد " .

. . " والزكاة يمكن أن يُزكِّى بها مَنْ يحب " .

. . " والحج فعلى مَنْ استطاع إليه سبيلاً أن يحج " .

. . " أما غير ذلك . . فلا " .

إننا نقول لهؤلاء الذين يريدون أن يقصروا الإسلام على أنه عبادات فقط :

- لا . . إنكم بذلك تقيمون الأركان فقط ، وتتركون ما يُبنَى على هذه الأركان .

ولذلك فخصوم الإسلام تتركز أمانيهم على أن يقتنع المسلمون بأن الإسلام أمر تعبُّدىّ فى الأركان الخمسة فقط ، ويحاولون عزل الإسلام عن صناعة حركة الحياة ، ليتحركوا فى الحياة وفق أهوائهم .

هنا نقول : لا . .

هنا نقول : إن الإسلام قد جاء ليحكم حركة الحياة .

لذلك نقول : إن الرسول ﷺ علَّمنا كل شىء فى الحياة حتى دخول دورة المياه للتخلص من الفضلات .

لذلك فالمراد ليس أن نقف بالإسلام عند أركانه . .

ولكن هدف المسلم هو أن يبنى على أركان الإسلام حركة الحياة كلها .

وإذا سألنا : لماذا جاء الدين الإسلامى بالحركة الشاملة لتنظيم الحياة . . فإن الإجابة تأتينا على فهم بالتاريخ .

إن الإسلام جاء على أثر المسيحية . .

والمسيحية جاءت على أثر اليهودية .

والديانة اليهودية كما هى موجودة فى التوراة التى أبقاها رجال الدين اليهودى . . الديانة اليهودية فى التوراة التى نعتقد أنها ناقصة لن نجد فيها أى شىء يتعلق بقيم الحياة ، والذى يقرأ هذه التوراة سيجد كل شىء فيها متعلقاً بماديات الحياة . .

وإذا كان بعض اليهود قد قام ببعض الشروح فى "التلمود" فالإنسان إذا ما قرأ التلمود فقد يسخر سائلاً : كيف يكون ذلك ديناً ؟

مثلاً . . يقولون :

- إن الله كل يوم فى العصر ينزل ويلعب مع الحوت .

أو أن الله يجلس مع الملائكة كل ليل ليذاكر التلمود .

ونقرأ فى التلمود أن الله عندما أراد أن ينتقم من فرعون قال لبنى إسرائيل :

عَلِّموا بيوتكم ؛ لأنى أريد أن أهدم على فرعون وقومه البيوتَ . . عَلِّموا بيوتكم حتى أعرفها . .

كأن الله لا يعرف إلا بمعرفة البشر !!

وكأن الله لا يعلم إلا بعلم البشر !!

ويُشخِّصون الله فرداً جالساً على صخرة يمدُّ ساقيه .

كل هذه المسائل مغرقة فى المادية الصرفة .

فكانت الحاجة تتطلب روحانية صرفة . .

فجاءت المسيحية . .

وسارت المسيحية فى مسار الروحانية الموغلة فى عداء المادية ، وهنا تناقض بين مادية قاتلة ، وروحية موغلة وعالم حائر .

إذن : لا بُدَّ للمادة من عقل بتخطيط ، وللروح من عقل بشوق وسموٍّ إذا تعقَّلت المادة كانت نفعاً ، وإذا تعقلت الروح كانت حبّاً للكل ، والإسلام هو عقل الكل ، ودعوة الكل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى]

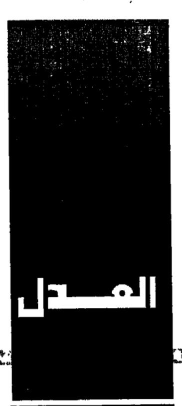
والرسول ﷺ يقول : "الأنبياء أخوة من عِلات[1] أمهاتهم شتى ودينهم واحد"[2].

إذن : الدعوة واحدة ، الروحية مع المادية مع العقل يساوى الدين الواحد ، للإنسانية الواحدة والموحَّدة .

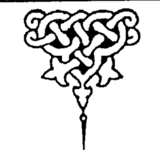
(١) هم الإخوة لأب من أمهات شتى.
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٠٦ ، ٤٦٣)

من فيض الرحمن

من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



العدل منهج الإسلام



استقبل الإسلام أهل الكتاب من يهود ونصارى استقبالاً سَمْحاً ؛ لأنه امتداد لهما فى مسيرة الأمن والسلام .

جاء الإسلام بعد ديانتين .

جاء على أثر المسيحية ، وكانت المسيحية قد جاءت بعد اليهودية .

ونحب أن نعرف كيف عالج الإسلام قضية التقاء الأديان .

ونحب أن نعرف كيف عالج الإسلام قضية الإلحاد .

جاء الإسلام والعالم معسكران :

معسكر ملحد بالله لا يؤمن إلا بالمادة .

ومعسكر مؤمن بالتقاء السماء بالأرض فى منهج يحمله رسل الله إلى خَلْقِ الله .

فكان الإسلام كعهده دائماً منطقياً مع واقع الحياة .

استقبل الإسلام كل أمْرٍ بما هو أهلٌ له .

استقبل الإلحاد بلا هوادة ، وأعلن على الإلحاد عداوة سافرة ؛ لأن الخلاف مع الإلحاد إنما هو قمة التدين . . وهو خلاف على وجود إله قادر مُدبِّر لهذا الكون .

وواجه الإسلام المعسكر الثانى . . معسكر الذين يؤمنون بوجود إله . . ويؤمنون ببلاغ من السماء إلى الأرض على لسان رسلٍ وأنبياء

يصطفيهم الله سبحانه وتعالى .

فكيف استقبل الإسلام ما نسميهم أهل الكتاب من يهود ونصارى .

لقد استقبلهم الإسلام استقبالاً سَمْحاً .

استقبالَ سلام .

استقبالَ أمن .

فذكر كل الخواص الكريمة التى كرَّم الله بها موسى عليه السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام .

كرَّم الإسلام موسى تكريماً لا حَدَّ له .

وكرَّم الإسلام عيسى تكريماً لا حَدَّ له .

ونفى الإسلام عن عيسى كل ما يمكن أن يكون سبباً فى إذلاله أو أن تُتهم به أمه .

كرَّم الإسلام الرسولين الكريمين تكريماً كبيراً ، وذلك لِيُقِرَّ مبدأ التقاء السماء بالأرض .

ولذلك . . نجد أن الفُرْس الذين كانوا يمثلون المجوسية والإلحاد هم الأبعد عن احترام الإسلام .

ونجد أن الروم الذين يمثلون المسيحية وأهل الكتاب كانوا أقرب إلي قلب رسول الله ﷺ والمؤمنين برسول الله ، ذلك أن الروم كانوا من أهل

الكتاب .

فلما نشبت المعركة بين الفُرس والروم . . وتمتْ هزيمة الروم على يد فارس . . حزن رسول الله ﷺ . . وحزن المؤمنون لرسول الله . .

لأن العداء بين المسلمين وأهل الإلحاد هو عداء فى القمة .

أما الخلاف بين المسلمين والديانتين العظميين فهو خلاف قد يكون فى تصور الإله .

وتصور الإله هو المشكلة فى الديانتين .

لكن الالتقاء بين السماء والأرض ، وخضوع الأرض لمنهج السماء هى أمور مُتفق عليها .

لذلك كان قلب رسول الله ﷺ وقلب المؤمنين برسول الله ﷺ مع أهل الكتاب من الرومان عندما هزمهم الفرس .

وفى ذلك يُنزل الله قرآناً يُتْلىَ . . ليدل الناس جميعاً على أن الإسلام ورسول الإسلامَ ﷺ قد أحبَّ الذين كفروا بمحمد كنبىّ ولكنهم مؤمنون بالله ، ولم يحب الذين كفروا بالله .

إذن . .

فعصبية محمد ﷺ لربه أقوى من عصبيته لنفسه .

والذين كفروا برسول الله محمد ﷺ . . أقرب إلى قلب رسول الله

محمد من الذين كفروا بالله .

ولذلك حـزن رسـول الله ﷺ حين هَزَمَ الفـرسُ - المنكرون لله - المؤمنين بالله وهم الروم ، وإنْ كانوا كافرين بمحمد .

فقال الله فى كتابه الكريم :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

[الروم]

تبدأ الآيات الواضحة بحروف الألف واللام والميم لبيان أن هذا القرآن مُكوَّن من الحروف التى ينطق بها العربى فى سهولة ووضوح ، ولتنبه مَنْ يستمع إلى الآيات إلى أن ما يحمله هذا الكتاب يَصْدُق دائماً ، وإذا كانت فارس قد غلبت الروم فى أقرب الأرض إلى المسلمين ، وهى أطراف الشام . . وإذا كان المشركون برسالة محمد ﷺ وعَبَدَة الأصنام قد فرحوا بانتصار الفرس على أهل الكتاب من الروم . .

وإذا كان المؤمنون بالله من أتباع محمد ﷺ قد حزنوا لذلك . . فإن الله يتنبأ فى القرآن بنص واضح أن الروم ستغلب فارس بعد سنوات ، والأمر دائماً لله . .

ويوم يتحقق نصر أهل الكتاب على الملاحدة سيفرح المؤمنون . .
وهكذا نجد أن المسلمين قد فرحوا لنصر أهل الكتاب ؛ لأننا نحن وهم مؤمنون فى القمة ، وإن كنا مختلفين فى الرسول الذى أبلغ لنا رسالة الإيمان . .

نحن مؤمنون بالرسولين موسى وعيسى عليهما السلام .

وهم وقفوا عند محمد ﷺ موقف النكران .

ورغم ذلك فقلوب المؤمنين وإشارة الله للمؤمنين أن الله سينصر مَنْ آمن بالله حتى وإن كان كافراً بمحمد - على الذين آلحدوا وكفروا بالله ؛ لذلك قال القرآن : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ . . (٥) ﴾ [الروم]

وهكذا نرى سماحة الإسلام .

وهل رأى أحد سماحة فى الإسلام أحلى من هذه السماحة؟

هنا قلوب المؤمنين بمحمد مع الذين يكفرون بمحمد ؛ لأن الذين كفروا بمحمد آمنوا برب محمد ، وإن اختلفوا فى التصور الإيمانى للإله الذى يؤمنون به .

ودليل آخر على نبوة محمد ﷺ . .

لنسأل أنفسنا . .

كيف يتأتّى لرسول الله ﷺ وهو النبى الأمى فى الأمة الأميّة أن يحكم على نهاية معركة بين أكبر قوتين فى الأرض فى ذلك الزمان ؟ . .

كيف يتنبأ محمد بأن الروم - قوة الغرب - ستهزم فارس فى الشرق ؟

كيف يحكم ويفصل فى معركة لم تبدأ . . وحرب لم تَقُمْ ويقول : إن ذلك سيحدث فى بضع سنين ؟

مَنْ الذى يستطيع أن يحدد نهاية معركة ما بين قوتين كبيرتين .

لو أن هذا التنبؤ قد حدث فى عصرنا هذا ، لقلنا : إن عند محمد أخباراً بأسلوب إعداد الروم لمعركة قادمة تنتصر فيها على الفرس .

لكن هذا التنبؤ حدث فى عصر قديم .

ومسئولية كبيرة ورهيبة هى أن يحكم محمد ﷺ فى نصر الروم على الفرس فى بضع سنين ، وهى مسافة من الوقت واسعة .

فكيف يتأتى لمحمد أن يحكم فى مصير معركة ؟ . .

أولاً : هو ليس طرفاً فيها . .

وثانياً : هو لا يعلم ما قد يَجِدُّ فى فترة "بِضْع سنين" من قوة هذا الطرف أو ضعف ذلك الطرف . .

ثم . . يطلق قضية نصر الله للروم على الفرس بعد بضع سنين ، ويحدد أيضاً مشاعر المؤمنين لحظتها بالفرح .

إنْ دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على أن الرسول ﷺ ينطق عن ربه الذى يعلم الأحداث كما تقع .

ولا يمكن أن يطلق الرسول ﷺ قضية قرآنية تُتْلَى وتُحفَظ ويَتعبَّد بها المؤمنون ليأتى المستقبل بما يُكذِّب الرسول ، وتتعرض دعوته كلها لِهزَّةٍ عنيفة .

لا يمكن أن يُعرِّض محمد ﷺ أمر دعوته للأخطار بالتنبؤ بانتصار لن يحدث .

لكن السنين تمر ويأتى نصر الله للروم على الفرس .

وصادف ذلك أنْ نَصرَ الله المؤمنين على الكافرين فى يوم بدر .

وصدق قول الحق تبارك وتعالى فى كل كلمة نطق بها الرسول ، وكان انتصار أهل الكتاب على أهل الإلحاد يُفرح المؤمنين ، وكان انتصار المسلمين على أهل الأصنام يُفرح المؤمنين المنتصرين .

فرح المسلمون بانتصار الروم - أهل الكتاب - لماذا؟

لأن قضية الإيمان بالحق تبارك وتعالى مُتفق عليها ، وكان الخلاف فقط فى المنهج الذى يتصور أهل كل ديانة بها الخالق العظيم .

ولننظر أيضاً فيما يلى :

- كيف استقبل الإسلام الديانتين : اليهودية والمسيحية ؟ . .

هل حكم الإسلام على كل اليهود بشيء يكون نقيصة فيهم . . ؟

هل حكم الإسلام على كل النصارى بشيء يكون نقيصة فيهم . . ؟

لا . .

لم يصدر حكم الإسلام بذلك أبداً . .

الإسلام احترم الواقع .

الإسلام علَّم المؤمنين به أن كثيراً من اليهود يملكهم الحق ويملكهم الدليل . . لذلك قال :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ (١) سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

[آل عمران]

إذن : فالإسلام يعلم المؤمنين به إنصاف اليهود وإنصاف النصارى .

يؤكد الإسلام على أن الإنسان اليهودى أو النصرانى قد يأمنه الإنسان

(١) الأميون : هم المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ، أو هم العرب خاصة ، وكانوا معروفين بأنهم أمة أمية لا تكتب ولا تحسب .

المؤمن على قنطار من الذهب أو الفضة فيؤديه كاملاً ، ويؤكد أن هناك من بين اليهود أو النصارى من تأمنه على دينار واحد فلا يؤديه إلا إذا لازمته وأحرجته .

أنصف الإسلام المؤمنين باليهودية .

وأنصف الإسلام المؤمنين بالمسيحية . .

فعل الإسلام ذلك ؛ لأنه لو أصدر الحكم بإدانة كل يهودى أو مسيحى لزرع عداوة نهائية بين أهل الأديان ، ولمنع أى يهودى من أن يعتنق هداية الله له بالإسلام . . ولمنع أى مسيحى من أن يعتنق هداية الله له بالإسلام . . ذلك أن من بين اليهود والنصارى من تراوده نفسه إلى الحق وإلى الإيمان بدين محمد وتصديق ما جاء به من رسالة . .

فكيف يسدُّ الرسول ﷺ باب الإيمان على البشر . . .ومن المؤكد أن من البشر من يلمسه صدق الحق ونور الإيمان .

إذن : فقول القرآن بأمانة الإنسان المؤمن بالله ، وإن اختلف تصوره لله مع منهج الإسلام . . وقول القرآن بأن أمر الأمانة يختلف من إنسان إلى إنسان . . ذلك القول منطقى مع واقع الناس جميعاً . .

لم يظلم الإسلام أحداً من الديانتين .

لأن الإسلام أثبت أن فيهم من يؤمن بالله وينفذ أحكامه، وفيهم من

لا يؤمن بالله ولا ينفذ أحكامه .

أهل الديانتين كالمؤمنين بمحمد تماماً . .

منهم مَنْ ينفِّذ أحكام الله ، ومنهم مَنْ لا ينفِّذ أحكام الله .

إذن . .

فالقضية الالتقائية التى تمثل إيمان أهل الديانات الثلاث بالإله هى قضية متفق عليها .

لذلك . .

يجب أن يفطن أهل الديانات السماوية إلى تلك القضية وألاَّ يجعلوا العداء بينهم مُقوِّياً لأهل الإلحاد الذين يعادون كل مؤمن بالله ، وكل مؤمن بأحد الأديان السماوية .

ويريد الله منا أن يكون منهجه فى الأرض هو السائد ، ومنهج الله يُعلِّم المسلمين أن الناس تختلف فى كل بقاع الدنيا .

فإذا كانت الكثرة والعزة والغلبة للمسلمين فى بقعة ما من الأرض وعايشهم غيرهم من أهل الكتاب وكانوا قلة .

وما دام الالتقاء الإيمانى فى القمة بأن هناك إلهاً . .

وما دام الالتقاء الإيمانى يؤكد صلة السماء بالأرض . .

فعلى الرّحْب والسَّعة بكل المؤمنين بالديانتين العظميين . .

وَلْيسع كرم الإسلام كل إنسان من أهل اليهودية .

ولتسع سماحة الإسلام كل إنسان من أهل النصرانية .

وما دام منهج المسلمين سيداً .

وما دام منهج الله محقَّقاً .

ولا يعنينا أن يخطئ أهل الكتاب فى تصور القوة العليا وهى قوة الله .

والإسلام حين يحترم ذلك إنما يحترم نفوس المسلمين المعطرة بالإيمان .

وإن الإسلام يحترم أسلوبه فى احترام الإنسان .

وللإسلام كما يقدر أنه فى أرضٍ ما له الغلبة . . فإنه يثق أن هناك أمماً أخرى يكون المسلمون فيها أقلية .

وإذا أحسن أهل الإسلام عندما يكون لهم الغلبة فى معاملة القلة والأقليات فإننا بذلك نضرب المثل لأن تكون أقليتنا فى بلاد غير إسلامية مُحاطةً بالتقدير والعناية والرعاية والسلام والأمن والاحترام .

وعلى أقل تقدير لا يكون ذلك من أجل ديننا ، ولكن لِحُسْن معاملتنا لغيرنا من أهل بقية الديانات .

هكذا نرى أن الإسلام قد جاء لا لينتقم ، ولا ليزرع الفُرْقة بين الناس والأديان . .

لكن الإسلام جاء لينشر منهج الله . .

سواء آمنتَ بالله أم لم تؤمن .

لأن إيمان الفرد بالله لا يزيد الله شيئاً . .

إنما الإيمان هو الذى يجعل الفرد عنصراً مفيداً وفعالاً فى المجتمع . . والإيمان بالإسلام يؤكد أنه منهج لله فى أولويات التطبيق .

وهكذا نعرف أن الإسلام لا يجامل أحداً . . إنما يجامل الحق .

ولنضرب مثلاً على ذلك :

هناك يهودى اتهمه المسلمون ظُلْماً بسرقة درع مقاتل مسلم ، فقد وجد المسلمون الدرع عند يهودى . .

فقال المسلمون : إن اليهودى وهو زيد بن السمين قد سرق الدرع . .

وقال ابن السمين :

- أنا لم أسرق الدرع ، ولكن أودعه عندى رجل اسمه طعمة بن أبيرق .

وكان اتهام المسلمين لليهودى قائماً على شبهة . . فالدرع كان مُخبّأ فى جوال من الدقيق ، ومن سرق الدرع سار به إلى محل إقامة ابن السمين ، ووجد المسلمون خطاً من الدقيق مرسوماً على الطريق ، فقد كان جوال الدقيق مثقوباً ، وتتبع المسلمون خط الدقيق الأبيض حتى

وصلوا إلى بيت ابن السمين . . وهنا قالوا :

- اليهودى سرق الدرع . .

أنكر ابن السمين ، وشاع الأمر ، وأحب الناس أن يرفعوا الأمر إلى الرسول ﷺ .

فاليهودى قد اتهم مسلماً بأنه هو الذى سرق الدرع ، اليهودى أشار إلى طعمة على أنه اللص . .

ومال فكر المسلمين إلى إنصاف المسلم على اليهودى ولو ظلماً . . وذلك حتى لا يشمت اليهود بالمسلمين ، الفكرة فى حد ذاتها قد تعجب العقل والوجدان للوهلة الأولى . . وراح الأمر بين الأخذ والرد . (1)

وحسم الله الأمر . . فنزلت كلمات الله تعالى :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (106) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107)﴾

[النساء]

(1) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٠٣) وابن كثير فى تفسيره (٥٥١/١) وعزاه للترمذى وابن جرير فى تفسيره.

هكذا نزل حكم القرآن . . أمر واضح بعدم الدفاع عن الخونة أو الذين يبالغون فى إخفاء الخيانة فى أنفسهم . وأمر واضح لمحمد ﷺ أن يحكم بالحق وأن يتجه فى الحكم إلى الله ، وأن مغفرة الله قائمة ، وعلى ذلك فإقامة العدل واجبة ، هكذا حكم القرآن لليهودى فى تلك الواقعة على المسلم .

وهكذا خرج قانون السماء بالعدل أياً كان المتهم ، وأياً كان البرىء .

لماذا ؟

لأنه لو لم يتدخل حكم الله فى هذه القضية لإقامة العدل وكشف الخيانة وضرورة التحقيق وضرورة التأكد من الوقائع وعدم الرضوخ للهوى فى إقامة العدل .

لو لم يتدخل حكم الله فى هذا الأمر بهذه الدرجة من الحسم . . لكان من السهل على البشر أن يتهموا منهج السماء ، ولكان من السهل أن يتهم الناس سيدنا محمداً ﷺ نفسه بأنه غير صادق والعياذ بالله فى مهمة التبليغ بمنهج السماء للأرض .

وقد يقول قائل :

إن المسلمين قد ظلموا اليهودى ، ولكانَ الأمر تشكيكاً فى منهج الله سبحانه وفيمن أُرسل لتبليغه . . وتتحول المسألة من رغبة فى انتشار منهج

الله بين البشر إلى مسألة صراع على غير الحق بين قوة وقوة .

وحين نزل القرآن فى هذه المسألة بالحسم . . فإن ذلك يدلُّ على أن الله هو الحق .

ولا يمكن للحق الكامل المطلق أن يؤيد غير الحق البسيط للإنسان فى أن يقام للإنسان العدل .

ولا يمكن لرسول الله ﷺ أن يميل إلى إنسان خان نفسه ؛ لأن الله لا يحب مَنْ كان " خوّاناً أثيماً " .

والله عز وجل يقول :

﴿ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) ﴾ [النساء]

فهأنتم جادلتم عن غيركم فى الحياة الدنيا . . وقد ينتصر واحد بالظلم على غير مسلم . . فمن يجادل الله عن الظالمين يوم القيامة ؟

إذن . .

فالإسلام جاء بهذه السماحة ، وجاء بهذه العدالة ، ثم دعا الأديان إلى قضية واضحة . . إلى حسْم مسألة الإيمان بالله .

قال الحق تبارك وتعالى :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ (١) بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا (٢) مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ [آل عمران]

إن الرسول ﷺ يدعو أهل الكتاب إلى كلمة عادلة جامعة لا نخص أحداً بالعبادة غير الله، ولا نشرك به أحداً ، ولا يتحزَّب بعضنا إلى بعض فى إقامة حلال حرّمه الله ، أو إقامة حرام حلَّله الله .

ولنترك حكم الله فيما أحلّ وفيما حرَّم علينا . . فإن أعرض أهل الكتاب عن هذه الدعوة الحقَّة ، فقولوا لهم :

إننا راضخون لأحكام الله ، ومخلصون له الدين ، ولا ندعو أحداً سواه .

إن القرآن يدعو بوضوح إلى ثلاث مسائل :

* ألا نعبد غير الله .
* ألاّ نشرك به شيئاً . .
* ألا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

إن هذه القضايا الثلاث لا يمكن لعاقل أن يجادل فيها ليضعَ أمر

(١) كلمة سواء : كلمة عدل وإنصاف، نستوى نحن وأنتم فيها .
(٢) أرباباً : آلهة يطيع بعضهم بعضاً فى معصية الله .

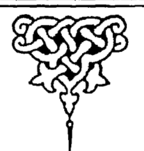
الخلاف والحكم بين الخلاف لمنهج الله وحده .

فإذا آمن الجميع بهذه القضايا أصبح الكل يعيش فى إطار الكل نحو منهج الله .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



الإسلام بين المادية والروحية



المؤمن ينفعل بأحداث الكون، فالحدث الذى يتطلب شدة يكون المؤمن فيه شديداً، والحدث الذى يتطلب الرحمة يكون رحيماً.

إذن: المؤمن يتفاعل فى الأحداث ويكيّفها بمعطيات المنهج.

جاء منهج الإسلام ليواجه تيارين:

التيار الأول: هو تيار الإلحاد والجحد للإله.

التيار الثانى: هو تيار يؤمن بالله، ويختلف أهله فى تصور ذلك الإله.

فكان الإسلام أقرب إلى التيار الثانى.. تيار الإيمان بوجود خالق لهذه الدنيا.

والإسلام جاء لينظم حركة الحياة.. وعندما يستقيم نظام حركة الحياة فلا يعنى الدين أن يؤمن الناس بالإله.. لأن إيمان البشر بالإله يعود عليهم فيما بعد..

فإذا شاء الله لجماعة من جماعات الخير أن تؤمن بالله وبرسوله الذى حمل إليهم منهجاً لتنظيم الحياة وحركتها.. فإن ذلك يكفى ليسود منهج الله فى حركة الأرض.

وذلك هو هدف التشريع السماوى..

أما أن يؤمن الناس بمصدر هذا المنهج فأمر لا يعنى إلا وجود مجتمع

قوى يؤمن بذلك ؛ ليدافع عنه حتى تسود حركة السماء فى منهج الأرض .

والإسلام حين جاء بنظام لحركة الحياة ، فقد جاء ليكمل إسعاد الحياة ، وليجعل البشر أقل قلقاً ، وأعلى اطمئناناً ، وأكثر قدرة على فهم الحياة والسيادة على الكون .

وعندما يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]

فإننا نرى أن الإسلام كان حركة ضرورية لاكتمال منهج الله فى الأرض .

ولذلك يعنى منهج السماء أن تؤمن به قوة تحمى ذلك المنهج ليسيطر فى الأرض .

وإذا آمن به بقية الخلق فأهلاً بهم .

ومن لم يؤمن فلا حاجة بنا إليه ، ما دام منهج الله قد أصبح مطبَّقاً .

ولماذا كان الإسلام إجمالاً وإكمالاً لمنهج الله؟

لأننا - كما قلنا - إن اليهودية جاءت وانحاز أتباعها إلى المادية البحتة . . حتى أصبح لهم تصور فى ذات الله .

وكان هذا التصور لا يناسب ذات الله سبحانه .

لأن ذات الله لو كانت على هذا التصور - كما أقول دائماً - ما كانت تستحق أن تُعْبَد ؛ لأن الإله الذى يمكن للحواس أن تدركه هو إله مقدورٌ عليه من الحواس ؛ لأن معنى أن يدرك الإنسان شيئاً بحاسة من حواسه أن هذه الحاسة قد قدرت على ذلك الشيء فأدركته .

إذن : فلو كان الله مُدْرَكاً بالحواس لكان خاضعاً لهذه الحواس .

لكن القادر المطلق لا ينقلب مقدوراً عليه أبداً .

إذن : فعظمة الله أنه لا يُدْرَك [1] .

ولو أن أيَّ تصور يجعله مُدْرَكاً . . لقلنا : إن ذلك التصور ينازع ألوهية الرحمن . . لأنه يصير مقدوراً عليه ممن أدركه . .

ولتبسيط هذا الأمر . . نقول :

إذا كانت هناك مسألة حسابية ، وأمكن لطالب أن يحلها فإنه يصبح قادراً عليها .

فإذا كان الإنسان يستطيع أن يحل مسألة تصور الله لكان الله مقدوراً عليه ؛ ولذلك قال القرآن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشوري : ١١]

(١) يقول عز وجل : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] .

وفى هذا نهى للإنسان بتحذير واضح هو :

- إياك أن تتصور الله كشىء من الأشياء .

لأن التصور للأشياء دائماً يأتى من الواقع . .

وما دام الله ليس كمثله شىء فلا واقع يمثله أبداً . .

إذن . .

فعظمة الله أنه لا يُدْرَك .

كيف ذلك؟

لأن الإنسان منا بإجماع العلم والمعرفة مُكوَّن من مادة ، ثم توجد الروح فى المادة ، فتنشأ فى المادة الحياة .

إذن : فالروح التى تنشأ فى المادة هى التى تخلق فى المادة الحركة والإحساس والوعى بالحياة .

وإذا سُلبت الروح من المادة . . صارت المادة «رمّة» .

فإذا كان «القادر» الذى يدير مادة الجسد ويحييها ويجعل الإنسان قادراً على استخدام الفكر والطاقة وسيادة الكون . . هذا القادر هل نستطيع أن ندركه بحواسنا؟

إن وقوف العقل أمام معجزة الروح أمر معروف منذ الأزل ، وما زال

حتى هذه اللحظة يقول العقل لنا : «لا نعرف من أمر الروح شيئاً »[1].

وإذا كانت الروح مخلوقاً من مخلوقات الله فكيف تريد أن تدرك خالقاً؟!

إن محاولة إدراك الخالق كشيء . . هو عبث .

لذلك . . عندما يقول أحد :

– أين الله؟

فإننا نقول على الفور :

– قبل أن تسأل عن الله . . دعنا نسألك عن روحك التى تؤمن أنها سر حياتك وسر حركتك . . أين هى منك؟

هل الروح فى رأسك؟

هل الروح فى قدميك؟

هل الروح فى أحشائك؟

هل الروح فى أنفك؟

إذن : فليس فى الجسم مكان أولَى منها بمكان .

كذلك الله الحق سبحانه وتعالى . .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٨٥)﴾ [الإسراء : ٨٥].

ليس مكان فى ملكه أولى منه بمكان .

فإذا كان وجود الروح فى الجسم كذلك .

وإذا كانت الروح مخلوقاً من مخلوقات الله ، ونعجز عن إدراكها . .

فكيف يريد الإنسان وهو عاجز عن إدراك مخلوق هو الروح ، فهل يمكن للإنسان أن يتسامى لإدراك خالقه؟

إن عظمة الله فى أن أحداً لا يدركه .

إذن . .

فى هذه المسألة عندما تأتى الأديان لتتصور فيها أى تصورات مادية فلنقل :

- أنتم أحرار فى تصوركم ، وما على السماء إلا أن تصحح التصور .

فتنزل من السماء الصفات :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

وتنزل الصفات من السماء :

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه وتعالى لا تُبصر ذَاته العيونُ، وهو يعلم دقائق العيون والقلوب والأرواح . . واللطيف الذى لا يغيب عنه شىء، والخبير الذى لا تخفى عليه أية معرفة .

﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤]

ذلك هو تصور المسلم الذى ينبنى عليه الإيمان، فإذا كان أهل الكتاب مع هذا التصور . . فمرحباً . .

وإن لم يؤمن أهل الكتاب، فلهم دينهم ولنا ديننا .

وما دام منهج الله سبحانه الذى يريده مطبَّقاً فى الأرض . .

إذن : فمنهج الله هو المراد والهدف .

وقد قلنا فى أحاديث سابقة .

إن الإسلام بُنى على الأركان التعبدية، وإن الإسلام لا يقف عند حدود إقامة العبادات . . إنما هو سلوك وانتظام حركة وتفاعل علاقات فى نظام شامل .

إن آفة الناس وآفة العقل البشرى كله هو الخطأ فى التصور .

ولو وقف الإنسان بفكره عند التعقل لكان سهلاً على الإنسان أن يحس الإيمان بالله فى كل أنحاء حياته، وكل أكوان أيامه .

وأن يتعقل أن وراء هذا الكون قوة حكيمة مدبرة، بدأنا منها وإليها نعود.

أما أن يريد الإنسان أن يتصور شكل هذه القوة.. فهذا الطريق إلى الشتات والخطأ.

وهنا نقول لمن يحاول تصور شكل محدد للخالق عز وجل:

- أنت أدخلت العقل فيما ليس من مجاله.

هل العقل مهمته أن يتصور؟

لا..

إن العقل له أن يتعقل فقط.

أما إذا حاول إنسان أن يُدْخِل مهمة التصور إلى العقل فسوف يحدث الخلاف.

ولقد ضربت من قبل ذلك مثالاً.. ولا أزال أضرب هذا المثل حتى يستقر فى أذهان المؤمنين بالله:

قلت: لنتخيل أننا نجلس فى حجرة.. ثم دقَّ الجرس..

هنا منطق التعقل..

كلنا يتعقل أن هناك من يطرق الباب.

لا أحد يختلف فى ذلك ، وتلك هى منطقة التعقل .

فإذا دخلنا منطقة التصور للطارق فقد نختلف :

قد يقول أحدنا : «هذا رجل» . .

وقد يقول آخر : «هذه امرأة» . .

وقد يقول ثالث : «إنه شاب» . .

وقد يقول رابع : «إنه إنجليزى الجنسية» . .

وقد يقول خامس : «لا . . إنه فرنسى» . .

وقد يقول سادس : «هذا بشير» . .

وقد يقول سابع : «إنه نذير» . .

وقد يقول واحد : «إنه قادم بالخير لنا» . .

وقد يعلن أحد : «إنه قادم لاعتقالنا» . .

وهكذا نرى أننا اختلفنا فى منطقة التصور .

وأصبح لكل منا تصور خاص .

لكن لو أننا اكتفينا بتعقل ما حدث لقلنا :

إن هناك قوة تطرق الباب .

ولو زاد تعقلنا لقلنا :

«إن علينا أن نترك للقوة التى تطرق الباب أن تعبِّر عن نفسها كما تشاء».

ويقول من طرق الباب:

- أنا فلان وجئت فى مهمة هى كذا وكذا..

وبذلك يتم حسم الموضوع..

ولذلك كان يكفى الإنسان أن يؤمن بعقله أن وراء الكون قوة تديره وتحرّكه.

فإذا سأل العقل عن اسمها.. فإن القوة يمكنها أن تعبِّر عن نفسها بالأسلوب الذى تراه.. تختار أنبياء ورسلاً يحملون لنا قدرة التعرف عليها ويشرحون لنا منهجها.

وإذا سأل العقل: «ماذا تريد هذه القوة؟»

فإن حدود العقل البشرى لن تعرف ذلك ما لم تُرِد القوة ذلكَ.

وإذا سأل العقل: «ما شكل هذه القوة»؟

فإن العقل سيعجز عن التصور.

وليس أمامنا سوى أن نترك لهذه القوة أن تعبر عن نفسها لتقول على لسان من تأمنه وتعطيه الحجة والعلامة، أن اسمها الله.

وأن الله يطلب من الإنسان كذا وكذا، ويكلّفه بمنهج هو أن يفعل كذا، ولا يفعل كذا.

إذن : حسم البلاغ عن الله بالرسول مسألة التصور لله أو التصور لمنهج الله .

نقول : كان يكفى أن نتعقل وجود الله ، ثم نترك للقوة المبلِّغة عن الله أن تعطينا المهمة الواضحة . .

ولقد كانت الخلافات بين الأديان فى التصور .

وحسم الإسلام هذا الخلاف بوضوح يقول :

- إن الله هو الذى يستطيع أن يقول عن نفسه ما يريد .

وجاء الإسلام بتصور مطلق عن القوة المطلقة فقال عن الله :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشوري : ١١]

فإذا سألنا : ماذا يريد الله منا؟

فإن الإسلام يجيب :

- يريد الله من الإنسان أن يفعل كذا ، ولا يفعل كذا .

وإذا سألنا :

- والذى يفعل ما يأمر به الله ، فما جزاؤه؟

يقول الإسلام :

- يعيش مطمئناً ويموت ليبعث فيدخل الجنة .

وإذا سألنا :

- والذى يعصى الله ما الذى يحدث له؟ . .

يقول الإسلام :

- يعيش مُكفهراً فى ضَنْك تختلف صوره ، ويموت ليبعث ويدخل النار .

ومع كل ذلك فعلينا نحن أهل الإسلام أن نعرف أن الحق تبارك وتعالى قد ترك فى الخلق مجالاً يُكذِّب الكافرين به ، والمُدَّعين الألوهية لسواه . .

فالذين يعبدون الشمس . . هل لنا أن نسألهم : ماذا تعنى العبودية؟ . .

إن معنى التعبد . أى : أن نطيع منهجاً نطبِّقه .

فأى منهج قالته الشمس؟

وما هى الأوامر والنواهى التى جاءت من الشمس؟

الشمس لا تعطى منهجاً

وإله بلا منهج لا يصح أن يُعْبَد لأنه إله كاذب .

لا . . إن معنى وجود إله يُعْبَد ، أى : أن يُطاع فيما يأمُر ، وحيث إن الشمس لا منهج لها فى حياة الإنسان فهى غير جديرة بالعبادة .

لقد جاء الإسلام ليقول :

- لقد جئتُ أُكمل حركة الحياة على نظام يمنع التصادم فيها ، ويجعل حركة الحياة كلها حركة متعاونة ، لا متعاندة .

وقد نسأل :

- ولماذا الفساد فى حركة الحياة؟

الفساد كان فى انحراف تصوُّر القائمين على إبلاغ رسالات الأنبياء إلينا .

فالذين أبلغوا عن موسى - عليه السلام - انحرف بلاغهم إلى المادية . . فكانت اليهودية مادية فقط ؛ ولذا كان وجود المسيحية منطقاً طبيعياً حيث كانت ديانة روحانية صِرْفة تُصوِّب مادية اليهودية ؛ لأن المادية اليهودية لم يكن بها قيم على الإطلاق ؛ لذلك جاءت المسيحية بقيم فقط .

إن المسيحية قد جاءت ؛ لأنها الجرعة الروحية المفقودة عند اليهودية . .

لكن . .

ماذا نقول لهؤلاء الذين يقولون : إن منهج السماء لا علاقة له بالمادية؟

لهؤلاء نقول :

- إن الحياة لا تستقيم على قدمين متساويين إلا بقيم روحية وقيم

مادية، وحيث إن اليهود تمادوا فى المادية لدرجة أنهم قالوا:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ﴾ [البقرة]

لقد علّق بنو إسرائيل إيمانهم برسالة موسى حتى يروا الله جهاراً عياناً بحاسّة البصر، فانقضّتْ عليهم صاعقة ونار من السماء جزاء طلب يستحيل حدوثه؛ لأن هذا يعنى أن يتجسد الله أمام الأعين، ورغم أن الله يرزقهم المنّ والسّلوى [١]..

ولذلك جاءت المسيحية بجرعة روحية، هذه الجرعة الروحية تصحح الانحراف الذى سبق.

وكان المفروض أن تتعاون اليهودية والمسيحية على منهج.

لكن حدث العداء التقليدى والخلاف.

وكان من نتيجة هذا الخلاف أن حدث ما حدث من اليهود ضد المسيحيين.. لذلك.. كان لا بد أن يجىء الدين الجديد.. الإسلام.

دين جامع لمنهج مادية الحركة فى الحياة ومنهج القيم الروحية أيضاً..

(١) المن: هو شراب حلو كان الله ينزله لهم على الأشجار مثل الرُّبِّ، مثل الصمغ، كانوا يأكلونه أو يمزجونه بالماء. والسلوى: طائر يشبه طيور السمان وقد تكون هي. وفي هذا قال عز وجل: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٦٠]

حتى لا يقال : إن الدين هو الروحانية فقط والعبادة فقط . .

وحتى لا يقول اليهود : إن القيم المادية فقط هى الدين .

وفى صلب دين واحد يجىء تجتمع مادية حركة الحياة وقيمها .

ولنسمع قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ [1] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ [2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح]

هذه دقة الأداء القرآنى . . يعنى المؤمن بالله لا يسلك بالشدة إلا على الكفار ولا يسلك إلا بالرحمة مع المؤمنين . لأن من يُطبع على الشدة فقط . . فإنه يفقد مواقع الرحمة ، ومن يُطبع على الرحمة فقط . . فقدته مواقع تتطلب الشدة .

(١) السيما : العلامة .
(٢) شطأ الزرع : أطرافه وغصونه وأوراقه . فآزره : جعله يشتد .
فاستغلظ : شب وطال .

لذلك فالمؤمن ليس مطبوعاً على شدة مطلقة ولا على رحمة مطلقة.

إن المؤمن ينفعل بأحداث الكون.. فالحدث الذى يتطلب شدة.. يكون فيه المؤمن شديداً. والحدث الذى يتطلب الرحمة يكون رحيماً.

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ [المائدة]

وهذا بيان واضح على أن الارتداد عن الإيمان لن يضر الله تعالى لأنه يملك قدرة تبديل الكون بقوم يحبهم فيوفقهم للهدى والطاعة فيهم تواضع ورحمة بإخوانهم المؤمنين وفيهم شدة على أعدائهم الكافرين.. يجاهدون فى سبيل الله وذلك فضل من الله يمنحه لمن يوفقهم إلى الخير والله كثير الفضل.

هكذا نرى أن المسلم لم يُطبَع ذليلاً على إطلاق الحياة ولا عزيزاً على إطلاق الحياة.. لأن هناك مواقف تتطلب من المؤمن الذلة لأخيه المؤمن.. وهناك مواقف تتطلب من المؤمن العزة أمام الكافر.

إذن: فالمسلم ينفعل لمنهج الله.

ولا ينفعل لموقف ثابت فيه .

ولهذا كان قول الله :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ [الفتح : ٢٩]

عندما نصل إلى هذا الجزء من الآية فإننا نرى فيها القيم مركَّزة فى الشدة والرحمة . . ثم نرى بعد ذلك علامات مادية وهى «سيماهم فى وجوههم من أثر السجود» لأن التوراة مادية صرفة . . فأعطاهم الله العنصر المفقود عند اليهود .

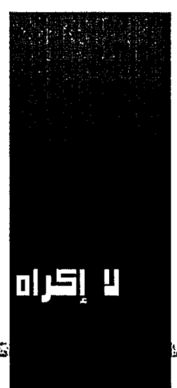
ولأن الله قال إنه سبحانه سيأتى برسول صفاته كذا وكذا . .

أما مثل المؤمن فى الإنجيل مثل الزرع الجيد .

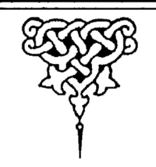
ويجىء الإسلام مستوعباً لمنهج يتضمن حركة الحياة الروحية والمادية . . ليعتدل ميزان الوجود اعتدالاً يضمن به حركة الحياة التى تمنح المؤمنين سعادة .

فالإسلام عقل الروحية الدافعة ، وعقل المادية النافعة ، وبغيره يختلُّ الميزان ، وبه اعتدال موازين الحياة .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



لا إكراه في الدين.. لماذا ؟



القهر على الاقتناع بمبدأ يدفع البشر إلى النفاق .

القهر سوس ينخر فى العقائد . . لذلك ترك الله أمر الإيمان للإنسان . . حتى يذهب الإنسان إلى الإيمان بقلب عاشق .

جاء الإسلام إكمالاً وإجمالاً لدين الله فى الأرض .

وكان الإسلام وما زال معقوداً بالتمسك بما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ .

وجعل الحق سبحانه وتعالى رسالة الإسلام رسالة خاتمة . . فليس لأحد أن يستدرك عليها أو أن يتزيَّد فيها .

وكل شغل المؤمن بها إن كان حاكماً . . أن يرعى حدود الله لتنفذ كما أراد الله .

وكل شغل المؤمن بها إن كان محكوماً ، فهو أن يطبق منهج الله فيما ولايته عليه ليلقى من الحق جزاءه فى الدنيا . . ليكون عبرة .

لأن الله لا يؤخر كثيراً من قضايا الكون إلى الآخرة . .

لأنه لو حدث تأخير كل القضايا إلى الآخرة لعاث الذين لا يؤمنون بالآخرة فى الأرض فساداً .

فلو لم يأخذ الله كل ظالم للبشر بمخالفته لمنهج الله فى الحياة الدنيا . .

لتشكك كثيرٌ من الناس فى منهج الله ؛ ولذلك يضع الحق قانوناً سائراً فى الزمن . .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾

[الأنعام]

هكذا نرى أن الظالمين الذين يفسدون فى الأرض بظلمهم وطغيانهم لا يسلط الله عليهم إلا ظالمين مثلهم ، لا يسلط الله عليهم الأخيار .

لأن إنسان الخير دائماً ليِّن الطبع ، رقيق القلب ، وقلب إنسان الخير يرحمه الله ، ولا يحمله على الانتقام ممن يظلم . .

لذلك يسلط الله على الظالم ظالماً آخر . . نُزعت من قلبه الشفقة والرحمة ، وكذلك يؤدب الله الظالمين بعضهم ببعض .

أما الأخيار فهم مطمئنون حتى إلى أن الله لا يكلفهم تأديب الظالمين .

والذين ينظرون فى التاريخ قديماً وحديثاً يمكنهم أن يقرأوا هذه الحقيقة .

إننا لا نجد ظالماً فى الأرض إلا وأصابه ظلم من هو أظلم منه .

والتاريخ الحديث الذى عشناه يشهد ذلك كله .

فكم من ظالم تم تعذيبه بنفس الأدوات التى استجلبها ليعذِّب بها الناس .

كل ذلك مشهود لنا ليطمئننا الله على أن الله يدفع الناس بالناس .

فمن يدفع أخاه المؤمن بالكلمة الطيبةوالأسوة الحسنة فذلك سُنَّة الأخيار .

ومن يدفع حتى الظالم بالكلمة الطيبة والأسوة الحسنة ، فذلك أيضاً سنة الأخيار مع الأشرار .

ومن لا يقبل ذلك ولا يرضى به فإن الله يسلط عليه من يلوى يده ، ويذل عنقه ، ويذيقه من جنس ما أذاق سواه .

هذا هو منطق واقع الحياة .

فعلى الذين يؤمنون بمنهج الله من مختلف الديانات أن يواجهوا عدواً متحداً عليهم وهم الملاحدة الذين ينكرون صلة السماء بالأرض .

وعلى المؤمنين جميعاً أن يتركوا تصوراتهم فى الله .

وعلى المنطق الحق أن يقول ما قاله الله عن نفسه تصوراً فى ذاته ، وتصوراً فى صفاته . . فإن اقتنع بها أصحاب الديانات الأخرى . .

فأهلاً . .

وإن لم يقتنعوا . . فيكفينا أن نقول كما قال الله :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ [الكافرون]

ومـا دام منطق الحق فى الإسـلام قـد وجـدت له أمـة لهـا غـالبـيـة إسلامية . . ودولة نحب أيضاً أن تكون إسلامية ، وسوف يحدث ذلك إذا طبقنا منهج الله .

وعلى الذين لا يرضيهم أن نطبق منهج الله أن نناقشهم فى تعقل .

لنفترض أن قوة من البشر سيطرت على أمر دولة من الدول ، وكانت لها غالبية فرضت ما شاءت من القوانين البشرية .

فهل يكون لأقلية أن تخرج على ما قررته الأغلبية؟

لا . .

إن الأقلية مطالبة أن تنفذ ما قررته الأغلبية ، حتى ولو كان المطلوب من صنع البشر أنفسهم .

فإذا كـانت الأغلبـيـة قـد قـررت وارتضـت دين الله عقـيدة لـهـا . . ولا تستعلى هذه الأغلبية أن تقول هذا من عندى . . حتى لا يقال إن أمة تريد أن تستعلى على طائفة لتحكمها بما شاءت .

نحن لا نحكم بما شئنا . .

إنما نحكم بما شاء الله .

فإذا كان عند إحدى الديانات منهج ينظم حركة الحياة من بدايتها إلى نهايتها فليتقدموا به إلينا ، وسيقارنه العقلاء - إن وجدوا هذا المنهج - بما عندنا من دين الله . . فإن وجدناه خيراً مما أنزل الله . . فليطمئنوا إلى أننا سنأخذ به . .

ولكن الحق تبارك وتعالى . . لم يدع للناس مجالاً . . فقال ما معناه :

- إنى أنزلت القرآن على محمد ، وجعلت القرآن مهيمناً على ما سواه . .

وعلى الذين يريدون لمنهج الله فى الأرض أن يسيطر فلا بد أن يُكَتِّلوا كل قواهم لأعداء الله والملاحدة بالله .

لأن انشغال المؤمنين بالأمور التافهة أو بالتصورات فى ذات الله . . وفى صفات الله . . هذا أمر كما قلنا سابقاً يتعدَّى منطقة التعقل . . وما دام الأمر قد تعدَّى منطقة التعقل فليس لنا أن نتعصَّب له . . إلا إن جاء بما اتفقنا على الإيمان به .

وعلى الذين يرون فى دينهم حقاً . . أن يعرضوا الدين بسماحة أهل الدين .

لأننا كمسلمين يحكمنا مبدأ واحد هو :

- إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

الذى يعصى الله فينا . . لا نكافئه نحن بمعصية الله .

وإلا . . فقد أعطيناه حجة على أننا متساوون فى المعصية .

نحن لا نعطى أحداً فرصة أن يرى فينا عصياناً لله فى معاملته .

نحن نطيع الله فى كل ما حولنا ومن حولنا . .

ذلك هو التأنيب السلوكى الذى يجب أن يكون عند منطق الغالب بمنهج الله فى الأرض . .

وعلى أصحاب أى دين أن يعرضوا دينهم فى سماحة . .

لأن الحق أعلن ذلك . .

أعلن الحق تبارك وتعالى أنه لا إكراه فى الدين .

إن الإنسان يكره أن يقهره أحد على شىء . .

الإنسان يكره أن يجبره أحد قائلاً : «يا ابن الكذا . . اسجد لى . . عظِّمْنِى . . امدحنى بشعر . . قل فىَّ أحسن الكلام» . .

إن فى ذلك تشويهاً لقالب الإنسان .

ولكن لا أحد يستطيع أن يجبر قلب إنسان على الحب . .

لا أحد يستطيع أن يصدر أمراً يقول : «أحبنى»

إذن . . فالعقائد لا إكراه عليها . .

ولو أراد الله أن يخضع البشر جميعاً . . لقال كما قال فى القرآن :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ [2] ④ ﴾ [الشعراء]

كأن الله سبحانه يقول لنبيه الكريم محمد ﷺ : «أشْفُقْ على نفسك يا محمد ، ولا تقتلها حزناً على عناد قومك وعدم إيمانهم» إن فى قدرتنا أن نأتيهم بمعجزة تجبرهم على الإيمان ، فيخضعوا لأمر الله ويتم ما تتمناه . . لكن الله لا يلجأ إلى ذلك . إنه يكلف الناس بالإيمان دون إجبار ، كى لا تضيع الحكمة من الثواب والعقاب .

إن الله لا يريد أعناق عبيد .

إنما يريد الله قلوب بشر لها كرامة .

إن الذى يفرض بالقهر أحد المبادىء ولو بالسوط وجبروت السلطان . . هذا الذى يحترف القهر لإجبار الناس على مبدأ . . هذا الإنسان لا يؤمن بما يقهر الناس عليه . لأنه لو كان مؤمناً . . لقال للبشر

(١) باخع نفسك : قاتل نفسك ومهلكها .
(٢) خاضعين : أى : لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً ، ولكننا لا نفعل ذلك لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى .

مـا هو هـذا المبـدأ . . ولعـرض أسس هذا المبـدأ . . ولاسـتـقـبله الناس بالرضا . .

والله لا يقبل أن يجبر أحداً على الإيمان به بالسوط .

لهـذا فإن رأى الواحـد منا إكـراهاً على مـبـدأ أو إرهاباً على رأى . . فلنعلم أن صاحب هذا المبدأ غير مقتنع به .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

ولو أراد الله إيمان كل من فى الأرض جميعاً لآمنوا . . لكن الله ترك الإيمان مع التعقل والاقتناع فلا إكراهِ فى الإيمان .

وما دام الأمر كذلك . .

فعلى المؤمن أن يعرض منهجه عرضاً سمحاً . . ولا يحاول إجبار أحد على الاقتناع .

لأن الإكراه على مبدأ ما هو سُوْسَةٌ تنخر فى ذلك المبدأ .

إن الإنسان المقهور بمبدأ ما . . يتسلل إليه نفاقاً ، ويفعل كل الشرور لهذا المبدأ . . ولذلك يؤكد الرحمن الرحيم :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ [1] فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ [2] لا انفِصَامَ [3] لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

لا إجبار لأحد فى دخول الدين .

منهج الحق واضح .

ومنهج الباطل واضح .

من اهتدى إلى الإيمان وكفر بكل طغيان على العقل فقد استمسك بأقوى الأسباب التى تمنعه من الانزلاق إلى الضلال .

ولذلك حين يعرض الحق منهج الله ويعرض منهج الداعين إلى الله، فهو يطلب أن يكون المنطق سيداً، والعقل حكماً ، والقلب محباً .

ولنأخذ القدوة من رسول الله ﷺ :

هل أجبر الرسول خصومه من الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذين كفروا به ؟ هل أجبرهم على الإيمان بما يحمله من رسالة؟

لا . .

(١) الغيّ : الضلال والزيغ .
(٢) العروة الوثقى : كلمة لا إله إلا الله . والعروة : مقبض الشىء .
(٣) لا انفصام لها : لا انقطاع لها .

يقول الرسول الكريم :

- الهدى أمر واحد .

إن محمداً مطمئن إلى أن منهجه بحُسن العرض لا بد له من الفوز؛ لذلك طلب من خصومه أن يقفوا من هذه المسألة بمعيار سليم . .

بمعيار غير غوغائى ولا جماهيرى؛ لأن الجمهرة تلقى بتبعة الأحكام على البعض .

فعندما تقوم مظاهرة ضخمة ينطق كل واحد بكلمة ، ولكن فى لحظة التحقيق يرمى كل إنسان تبعة المسئولية على سواه . .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين عارضوا منهج محمد :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

إن الأمر هنا أن نقيم العقل مخلصاً لله بعيداً عن التقليد . . وأن نتأمل وجود الله وسيطرة منهجه فرداً فرداً . . أو اثنين اثنين . . ولنفكر فى أمر صاحب رسالة الله محمد بعد أن عايشه كل الناس فى عصره . . ألم يكن محمد دائماً صاحب عقل راجح ينجيكم بأفكاره من الهلاك؟

---

(١) جنة : جنون.

إن الأمر هنا بأن يجلس البشر كل اثنين معاً ولا أكثر، حتى لا يتحول الحوار إلى مجادلة أو إلى محاولة إثبات الانتصار.

إن اجتماع ثلاثة ومناقشة اثنين تعنى أن كل طرف قد يحاول الانتصار على الطرف الآخر. آما عندما يجلس اثنان معاً.. فإن المنتصر منهما يشعر حلاوة اقتناع زميله، والمقتنع يحس حلاوة المنطق الذى اقتنع به.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض على كل منا منهجه فهو يطلب منا ألا نلقى تبعة عقيدته على سواه..

ولذلك يمكننا أن نذكر ما قاله الشاعر أحمد شوقى فى رواية "مصرع كليوباترا"..

ففى يوم أكتيوم انهزمت كليوباترا.. وأشاع رجال حكمها أنهم انتصروا، وجلس الشعب يردد الانتصار، تماماً كما حدث فى تاريخنا الحديث.

ويصور شوقى الموقف تصويراً دقيقاً، حتى لا يكون عرض الحقائق خاضعاً للغوغائية:

«اسمع الشعب ديون

كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافاً بحياة قاتليه

أثَّر البهتان فيه . .

وانطلى الزور عليه»

إن الله سبحانه وتعالى يقول ويؤكد : إن مسائل العقائد يجب ألاَّ يُسنِد الإنسان فيها المسئولية إلى أحد آخر غيره .

ولن يشفع ذلك لأحد .

فعلى الإنسان أن يناقش قضية العقائد بتعقل وتفهم، لا بغوغائية تسير وراء الصياح كالأنعام .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصِّرنا بأمورنا تبصيراً يدفعنا دائماً إلى منهج الحق .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن

أدب الحياة مع الإسلام

أنصف الحق سبحانه وتعالى خلقه حين أوجدهم من عدم .

والمرحلة الثانية فى إنصاف الحق تبارك وتعالى للإنسان حين أنصفه ربه بالإيمان بالغيب ، ذلك الإيمان هو إنصاف للخالق بأن يؤمن كل البشر بأن الله أحسن الخالقين .

وقلنا : إن القرآن يتعرض لكل القضايا بدءاً من الخلق إلى كيف خلق الله الإنسان .

فلما عرض القرآن قضية الخَلْق للإنسان . . أوضح القرآن أن الإنسان مكين . . أى : لا بد أن يوجد فى مكان .

و " المكين " هو الشىء الموجود فى مكان .

فكل مكين لا بد له من مكان .

إذن : فحين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن خلق " المكين " فلا بد أن يصحب ذلك الحديث أيضاً ضرورة الكلام عن خلق المكان . .

وإلا فكيف يوجد " مكين " بدون " مكان "

ولذلك يجب أن نفهم جيداً كيف عرض الحق سبحانه وتعالى قضية الخلق الأول . . فى أول بلاغ أخبره الله عن ذلك الإنسان حين قال للملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

هكذا أخبر الله عن خلق الإنسان . . وكان قد خلق آدم من قبل . . وهو " المكين " والخليفة لله فى الأرض ، وهكذا نعرف أن الله قبل أن يخلق الإنسان لا بد أن يكون قد خلق المكان . . والمكان هو الأرض .

وهكذا صدر البلاغ عن الله . .

إذن : فقضية الخلق للكون وللأرض ، ولما يتبعها من السموات قضية خلق الإنسان ، كل ذلك سابق على وجود العقل الواعى للإنسان .

ولهذا يعلّمنا الله كيف خلق وكيف تَمَّ ذلك بأمر منه . . فقال فى كتابه الكريم :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (١) (٥١) ﴾ [الكهف]

وهذا يعنى أن البشر لم يشهدوا بداية الخلق .

وما دام الله لم يستدع أحد البشر ليشهد بداية الخلق .

---

(١) عضداً : مساعداً ومعيناً .

وما دام الإنسان لم يشهد هذه المرحلة ، فلا يمكن إلا أن نؤمن بما قاله الخالق سبحانه عن هذا الخلق . .

فحين تكلَّم الله عن خلق الإنسان . .

قال مرة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

ومرة قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ (٥) ﴾ [الحج]

ومرة قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون]

ومرة يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر]

ومرة يقول : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن]

تلك ماهية الإنسان . .

وبعد ذلك نفخ الله فى الإنسان الروح [1] .

وقد يظن واحد أن هناك تعارضاً بين تلك الأقوال . .

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ . . (٩) ﴾ [السجدة]

قد يتخيل أحد أن هناك تعارضاً بين الماء مرة ، والتراب مرة ، والطين مرة ثالثة ، والحمأ المسنون مرة رابعة ، والصلصال كالفخّار مرة خامسة . .

لكننا نقول لهذا الظن : إن الذى يدرس هذه المراحل جميعاً لا يجد فيها أىّ تعارض .

فأنا إذا أمسكت برغيف الخبز وقلت :

- " هذا من القمح " . .

أكون صادقاً ؛ لأنها مرحلة أولى من مراحل صناعة الخبز .

وإذا قلت : " هذا الرغيف من الدقيق " . .

أكون صادقاً أيضاً . . لأن الدقيق مرحلة من مراحل صنع الرغيف .

وإذا قلت : " هذا الرغيف من العجين " . .

أكون صادقاً ؛ لأن العجين مرحلة من مراحل صنع الخبز .

وإذا قلت " هذا الرغيف من الخمير "

أكون صادقاً . . لأن الاختمار مرحلة من مراحل صنع الرغيف .

فإذا قلت مرة : إن الرغيف من قمح . . ومرة أخرى : إن الرغيف من دقيق . . ومرة ثالثة : إن الرغيف من عجين . . ومرة رابعة : إنه من خمير . . ففى كل قول صدق . . لأن كل قول هو تسمية لمرحلة تمر بها

صناعة الرغيف .

والترتيب بين هذه المراحل لا تعارض فيه .

فحين يقول ربك سبحانه وتعالى : خلقتك من الماء . . فهو قول صحيح .

وحين يقول ربك سبحانه وتعالى : خلقتك من تراب . . فهذا قول صحيح :

لأن الماء عندما يختلط بالتراب يصبح طيناً . .

وعندما ترك الله - سبحانه - الطين حتى يتخمَّر - كما يحدث فى إناء العجين - حتى يتفاعل ويختمر ويصبح حمأمسنوناً [1] فهذا القول صحيح . .

وعندما نترك الطين ليصبح كالصلصال [2] جامداً بعض الشىء ، وبعد ذلك ينحت منه النحّات ما يريد . .

إذن : هذه مراحل عديدة . . يخبرنا بها الله .

وتنتهى المرحلة الأخيرة ، وهى أن الله نفخ الروح فى كل إنسان .

هكذا . . يخبرنا الله أن البداية كانت الماء ، ثم التراب ، ثم الطين،

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . المسنون: المصبورً المملَّس .
(٢) الصلصال : الطين الجاف الذي يصل من يبسه أي : يصدر صوتاً، فإذا أصابته نار فهو فخار .

ثم الحمأ المسنون .

أى : الطين المتغير . .

والحمأ المسنون هو الطين الذى تخمَّر وأصبحت له رائحة وبعد ذلك تحوَّل إلى صلصال . . ثم جاءت مرحلة نفخ الروح . .

بعد أن تمت صناعة التمثال الآدمى ، جاءت مرحلة نفخ الروح ، ودبَّت فى الإنسان الحياة .

هكذا قال الله عن خلق الإنسان . . ولكن الله سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق ، ومن علمه بأنه سيأتى فى المستقبل مَنْ يشك فى ذلك قال سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وفى هذا تحذير لهؤلاء المتغافلين الذين سيأتون بفلسفات عن كيفية الخلق . . لهؤلاء نقول : لماذا الجدل ؟

إن الله يسمى هؤلاء المضلين ، فيقول :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إنه يخبرنا بأنه سوف يوجد فى البشر مَنْ يحاول أن يُضِلَّ خلق الله ،

ويزيِّف هذه القضية ، فيدّعى مرة أن أصل الإنسان قرد، ويدَّعى مرة أخرى أن أصل الإنسان سمكة .

هؤلاء سمَّاهم الله " المُضلِّين "

ولولا تسمية الله لهؤلاء المضلين ، ولولا مجيء هؤلاء المضلين لما عرفنا كيفية مناقشة قضية الخلق .

إذن : وجود المضلين وقول المضلين أيضاً دليل على إثبات الحق من أجل أن يشكَّ البعض فى أسلوب الخلق، فلولا هذا لما اكتشفنا أصل الخلق ولا أصل الشمس التى انفصلت عنها الأرض .

إذن . . فوجود " المضلين " وتخزية المضلين بواسطة المؤمنين بالله . . إنما ليتثبت المؤمن من صدق الله فى كل ما قال .

وقد قلت مرة عن الذين يُشكِّكون فى أحاديث رسول الله ﷺ قلت : " إنهم دليل على صدق أحاديث رسول الله ﷺ " .

كيف ؟

إنهم يقولون : إنه لا يوجد إلا القرآن . .

ونحن نقول : لولا وجود هؤلاء ، فكيف نصدِّق الرسول الكريم حين قال :

«يوشك الرجل يتكئ على أريكته يُحدَّث بحديثى ، فيقول : بينى

وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[1] .

ولو لم يجئ هؤلاء المضلون ليقولوا ذلك لَظنَّ واحد منا ظَنَّ السوء وقال : إن الرسول مُخطئ . . لكن جاء هؤلاء واتكأ منهم من اتكأ . . وقال مثل هذا الكلام .

وهم لا يعرفون أنهم " غافلون " يُصدِّقون قولَ النبى ﷺ من حيث يريدون أن يكذِّبوه .

وهكذا نرى الحق سبحانه وتعالى يضع ذلك لمن آمن به ، ومن آمنَ بهُ سيصدق سواء أقيم الدليل على ذلك أو لم يَقُم الدليل ، فيكفى أن يكون الدليل وجود الله الأعظم .

فلماذا قال الله : ﴿ مَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

إنه يريد أن يضع حجراً فى فَمِ كل مُضِلٍّ . . فيقيم من أدلة الكون الحسية ما يخرس هؤلاء مادياً ، بحيث لا يستطيعون أن يتكلموا فى هذا .

لهؤلاء نقول :

– خلق الله الإنسان غيباً . . قبل أن نعرف نحن . . ولكن نحن نعرف

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤ / ٢٨٦) في سننهم من طريق الحسن بن جابر عن المقدام بن معدى كرب . قال الترمذى : حديث حسن غريب من هذا الوجه . واللفظ للدارقطنى .

أن الموت مشهود . . كما أن الخلق غيب .

ولنا أن نسأل :

- ما هو الموت ؟ . . إن الموت نقض الحياة . . أى : أنه كانت هناك حياة ويتم نقضها .

ونعرف أن كل شىء يأتى على عكس بنائه .

فمثلاً عندما تقوم ببناء عمارة من عشرين دوراً . . ثم ترغب فى هدمها . . فإن الهدم يأتى من الدور العشرين . . ثم التاسع عشر وهكذا .

وعندما تسافر إلى الإسكندرية من القاهرة فلا بد أن تمر ببنها أولاً . . ثم طنطا ثم دمنهور ثم الإسكندرية . .

وآخر ما مررت به وأنت ذاهب إلى الإسكندرية هو أول ما تمر به وأنت عائد منها .

إذن . .

فالله إذا نقض شيئاً فإنه يأتى على عكس بنائه .

ولنحفظ ذلك جيداً .

إن نقض كل شىء يأتى على عكس بنائه .

إن الله قد قال لنا إنه خلق الإنسان من ماء وتراب .

ثم حمأ مسنون [1] .

ثم صَلْصال [2] كالفخَّار .

ثم نفخ فيه الروح .

إذن : فعندما يأتى الموت فأول ما يفقده الإنسان هو آخر ما خلقه الله فيه . . فنرى :

أولاً : خروج الروح .

ثانياً : تنتفخ الجثة ويقال له : " فلان شضب " ومعنى ذلك أنه عاد إلى مرحلة الصلصالية ، وبعد ذلك تأتى العفونة ، وتصبح الجثة رمة . . أى : حمأ مسنوناً . .

وبعد ذلك تخرج منه المياه ، وتذهب بقية العناصر وتتحلل فى الأرض أى : التراب .

إذن . .

فالنقض بالموت على عكس بنائه فى الحياة .

إذن : فمراحل الموت المشهودة لنا تدل على صدق الله فى الإخبار عن مراحل الخلق التى لم نشهدها .

(١) الحمأ المسنون : الطين الأسود المتخمر .

(٢) الصلصال : هو الطين اليابس الذى يَصلُّ إذا طرقته بشىء ، أى : يصدر صوتاً .

وجعل الله فى ذلك حجة يلجم بها المضلين .

ولذلك يقول : إياكم أنْ تتبعوا آراء المضلين ؛ لأننى لم أتخذهم عضداً [1] لى .

أى : إننى لم أقل لهم ساعدونى فى مسألة الخلق . . حتى يخبروكم بها .

إذن : فلا مصدر لهذا العلم إلا من الله .

فإذا كانت الروح قد دَبَّتْ فى الصلصال الذى كالفخَّار ، ومنح الله الإنسان الحياة ، ومن الحياة يكون التكاثر .

إذن : فالحياة هى المادة التى نشأت من الروح التى نفخها الله .

وهذه مسألة يتساوى فيها كل الخَلْق ، والروح تأتى وتدب فى الجسم ؛ فى المؤمن وفى الكافر كذلك .

ولما أراد الإنسان ارتقاء الحياة خلق القيم . . وتعلَّم آدم منهج القيم فى جنة التدريب . . ونزل إلى الأرض ومعه "افعل" و "لا تفعل" [2] .

ولو لا ذلك لنشأ الفساد فى الكون .

---

(١) العضد : المساعد والمعين .

(٢) ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

ولذلك أخبرنا الله عن تكليف آدم وتدريبه . . وكيفية أن الله درَّب آدم على المنهج بـ " افعل " و " لا تفعل " وحتى لا يحدث تضارب بين " افعل " و " لا تفعل " وجهَّز الله الإنسان بطاقة الحياة وهى الروح حتى يتحرك الإنسان . . والله يريد ألا يحدث تضارب فى حركة الإنسان وحتى لا يحدث التضارب كان المنهج للإنسان .

منهج محدد التكليف . . بـ " افعل " حتى يعمُرَ الكون .

منهج محدد التكليف . . بـ " لا تفعل " حتى لا يفسد الكون .

وحدد الله حرية الحركة للإنسان .

وإذا كنا - نحن البشر - نمنع التضارب فى حركة القطارات بوضع نظام لها ، ونضع إشارات ، ونعين بشراً فى مهمة تحويل القطار من قضبان إلى أخرى حتى لا يحدث التصادم ، فإن الله يحدد أيضاً للإنسان منهجاً واضحاً .

والمنهج لا يُكلَّف به الفرد بمفرده ، ولكن يُكلَّف به الفرد والمجتمع . . وقد قلتُ مرة :

إن الذى يرى أن الله قد قال له " لا تسرق " حتى يحدد حريته فى الحركة وحده . . هذا الإنسان نقول له :

صحيح أن الله حدَّد حريتك فى الحركة ، ولكنه لم يحدد حركتك وحدك . .

إنما حدد حرية الجميع ، فكما قال لك " لا تسرق " . . . قال لكل واحد من الآخرين أيضاً " لا تسرق " . .

إذن : فأمام كل أخْذ من حريتك عطاءٌ لك . .

ولهذا فعندما ننظر إلى التكليف لا ننظر له على أنه لفرد واحد . . ولكنه لكل فرد .

فعندما يصدر التكليف من السماء فهو لكل إنسان على حدة . . وبالتالى للمجتمع ككل . .

وعندما يشرِّع الحق سبحانه أن تؤخذ زكاة من مال الغنى . . فليس معنى ذلك أن الزكاة إجبار . . لكن معناها بمنتهى الهدوء أن الزكاة تُؤمِّن حياة الغنى نفسه . . فعندما نأخذ منه للفقير . . فعليه أن يعرف أنه لن يخشى الفقر . . لأنه يحيا فى أمة متضامنة متكافئة . فساعة أنْ كان غنياً أخذ منه المجتمع لأخيه الفقير ، وفى هذا طَمْأنة للغنىّ أنه لو أصبح فقيراً فلن يحيا فى ضيق . لقد أخذ منه المجتمع من قبل ، وسوف يعطيه المجتمع لو احتاج .

يقول الحق سبحانه :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ [التوبة]

حين يضاف المال إلى صاحبه فهو تطمين له، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق مايحتاج، ويبقى له شىء يتموَّله، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير وإن لم يقصد. فيبين له الحق سبحانه: اطمئن إلى أن كل شىء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرف.

وأنت عندما تأخذ من القادر، فأنت تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه، فهو لايعيش فى المجتمع بمفرده، ولا يخاف أن يضيع منه المال، وإذا انتفى عنه، واحتاج لغيره فسيجد من يعينه ويقف بجواره، يعينه فى محنته.

والفقير أيضاً ساعة يرى نفسه فقيراً، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولايتركه وحيداً، ويتسابق أهل الخير لنجدته، فنفسه تنمو بالاطمئنان، لأنه فى مجتمع إيمانى، قد تطهر بهذه الصدقة التى أخرجها الغنى.

فالتطهير والتزكية يحدث للمأخوذ منه أى صاحب المال، وكذلك المال المأخوذ نفسه، وأيضاً تطهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير، فالصدقة تطهر عناصر الفعل كلها.

وهذا هو علم التأمين..

إذن: فكل تكليف من الله نسميه منهجاً.. والمنهج لا يمنح الإنسان

حياة عادية . .

إن المنهج يمنح الإنسانَ حياة راقية وسعيدة لا متاعب فيها ، حياة لا يتأرجح فيها الإنسان بين السعادة والألم .

ولكن يحاول فيها الإنسان إذا كان سعيداً أن يهدى بعض سعادته لمن حوله . . وإذا كان متألماً فإنه سوف يجد مَنْ حوله يتحملون عنه بعض الألم . .

وفى هذا نمو للتكافل فى المجتمع .

وفى هذا نمو للإنسان نفسه . .

ولقد ضربت مثلاً . .

الولد الصغير الذى يستيقظ فى الصباح ، ويأخذ كتبه إلى مدرسته لِيَجِدَّ ويتعلم وينجح . .

والولد الصغير الآخر الذى يستيقظ فى الصباح ليهرب من المدرسة إلى الشارع ليلعب . .

هذا الذى يهرب من المدرسة أحبَّ لذته حُبّاً أعمى ؛ لأنه بعد سنوات سيجنى الخسارة . .

أما الذى يذهب إلى المدرسة ويُمتِّع نفسه بالعلم . . فإنه يمنح نفسه

متعة دائمة . . دون ألم . .

هكذا الإنسان عندما يتبع منهج الله . .

وأسأل الله تعالى أن يبصرنا فى الفهم عنه .



الفهرس

رقم الإيداع ٣٤١٣/ ٩٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
٩٧٧/٠٨/٠٦٠٢/١
مطابع أخبار اليوم التجارية - هليوبوليس

هذا الكتاب

فى رحلة العطاء المتواصل لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى إشراقات وإلهامات متجددة تنير الطريق للسالكين ، وتهدى الحائرين ،وتعلم البشرية ما خفى عليها من أمور الدين .

إن « مكتبة الشعراوى الإسلامية » هى إحدى هذه العطاءات التى تولت « مؤسسة أخبار اليوم » إصدارها ، وصدر فى إطارها العديد من الكتب ، تناول كل كتاب منها موضوعاً مستقلاً بذاته ، يعالج قضية من القضايا الدينية التى تهم كل مسلم ومسلمة ، وتفتح آفاقاً جديدة فى تفكيره.

وهذا الكتاب فيض أفاضه رحمن الدنيا والآخرة على إمام الدعاة ، وأجراه على لسانه فى لمحات إيمانية ونفحات قلبية ، ينير طريق الهداية للحائرين المتحيرين.

وسيصدر هذا الفيض المبارك فى أجزاء أربعة ضمن «مكتبة الشعراوى الإسلامية» .

2

مطابع أخبار اليوم التجارية
قليوب ـ مصر